رسـالة

فى النظرية العامة للحدود

رؤية حضارية مع إشارة خاصة لحدود دار الإسلام

بقلم

~~الأستاذ~~ الدكتور عز الدين فوده

أستاذ كرسى المنظمات الدولية بجامعة القاهرة

عشية مالى حيلة غير أننى
بلقط الحصى والخط فى الترب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيده
بكفىّ والغربان فى الدار وقع

«ذو الرمة : الشاعر الأموى»

مستخرج من كتاب " حدود مصر الدولية "

مركز البحوث والدراسات السياسية

فى النظرية العامة للحدود

رؤية حضارية مع إشارة خاصة لحدود دار الإسلام

للأستاذ الدكتور عز الدين فوده

عشية مالى حيلة غير أننى
بلقط الحصى والخط فى الترب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيده
بكفىّ والغربان فى الدار وقع

«ذو الرمة : الشاعر الأموى»

مقدمة:

عادة مانؤكد فى دراستنا للقانون الدولى العام أن الدولة - بوصفها الشخص الرئيسى والمتميز من أشخاص القانون الدولى - تتكون من عناصر ثلاثة، هى: الاقليم والسكان والسلطة السياسية المنظمة (الحكومة) التى تقوم على تنظيم السلطات والمرافق العامة وإدارتها فى الداخل والخارج . والدولة بقيامها على هذه المرتكزات الثلاثة - والتى لا وجود لها بغياب أى منها- يوليها القانون الدولى العام ويحدد لها اختصاصات واسعة فى النطاق القانونى الدولى . وبدون ممارسة هذه الاختصاصات لاتتصف الدولة بالشخصية القانونية الدولية فى نظر القانون الدولى العام، ولا تظهر كصاحبة سيادة ذات اتصال مباشر بالحياة الدولية، لأن مبدأ السيادة لايعطى مضمونا" واقعيا، مالم تجسده مباشرة هذه الاختصاصات التى يقررها القانون الدولى العام لهذه الدولة. فهذه السيادة التى تزامنت مع استئثار الملوك بالسلطة فى الدولة الحديثة فى أوربا ومقاومة العباءة الكنسية للسلطة البابوية والامبراطور وتصفية الاقطاع ، لم تعد تظهر اليوم فى عصر القانون الدولى كسلطة مطلقة فى ممارسة هذه الاختصاصات، وكأن لارقابة ولاقيد عليها بحيث تصطدم بمصالح ومطالب غيرها من الدول. وأصبح لايمكن تصور الدولة الحديثة ذات العلاقات المتشابكة مع الدول الأخرى فى صورة الجزيرة المجهولة، أو فى شكل من أشكال الامبرطوريات القديمة التى تظهر سيادتها كقوة طاغية ومطلقة. ولكن القانون الدولى الحديث يفيد واقعا" عمليا" جديدا" للسيادة ، والمساواة بين الدول فى السيادة، بأن خلع عنها الصورة المجردة التى ، خلعها عليها بودان بكونها سلطة عليا لاتخضع للقوانين اى سلطة مطلقة، وأضفى عليها وصفاً بكونها فرضية لأهلية الدولة وصحة أعمالها فى ممارسة اختصاصاتها فى الداخل والخارج . وهى فى الحالين تفيد تكيف الدولة وتقيدها بالالتزامات الدولية، كما تفيد تكييف السيادة كمعيار لتمتعها بالاختصاصات التى يوليها لها القانون الدولى العام ، فتتسع أو تضيق بدرجة ملاءمتها للإختصاصات المماثلة لدى الدول الأخرى على ضوء قواعد القانون الدولى العام.

وعليه فإن الدولة بقيامها على المرتكزات الثلاثة - السابق الاشارة إليها- تملك بموجبها تسيير عمل السلطات العامة بأنواعها (السياسية والادارية والتشريعية والقضائية والتنفيذية) وممارستها فى اختصاصات تتعلق بالعنصرين الآخرين : الإقليم والسكان، ومايلزم لذلك من اختصاص في الزمان يتعلق بنشأة الدولة والاعتراف بها ومايطرأ على حياتها من تغيرات وانقطاع أو توارث، واختصاص مادى material يراه انصار مذهب وحدة القانونين (الدولى والداخلى)(١) والذى يعين طبيعة ونطاق مايعتبر من قبل الاختصاص الداخلى domistic jurisdic-tion من مسائل تنفرد كل دولة بتقريرها وتنظيمها والتصرف فيها فى اقليمها الوطنى، وما هو من قبيل مسائل القانون الدولى الوضعى وهذه مسألة دقيقة ورهينة بمدى تطور العلاقات الدولية، وتقديرية فى صدد مدى توسع القانون الدولى وولوجه في مسائل وموضوعات (كتنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية وحقوق الانسان...الخ) كانت تعتبر فى الماضى من ضمن مسائل القانون الداخلى لكل دولة، وأصبحت اليوم موضع بحث واسع وضرورى من قبل المنظمات الدولية ومقرراتها (المادة ٧/٢ من ميثاق الامم المتحدة)وحتى قيل فى ذلك أنه لاتوجد مسائل بذاتها ينظمها القانون الداخلى وأخرى ينظمها القانون الدولى. وهكذا نرى القانون الدولى العام كمجموعة من القواعد القانونية التى تشكل نظاما" قانونيا يقوم - كأى نظام من القواعد القانونية فى المجتمعات الوطنية - بتنظيم حياة وسلوك أشخاص هذا القانون ، ويتخذ هذا التنظيم مداره فى المكان والزمان فهو ليس صالحا" لكل مكان وزمان ، وإنما هو صالح لزمان معين ، ومكان أو إقليم معين ومن ثم نتكلم عن نطاق للإختصاص الاقليمى، ونطاق للإختصاص الزمنى، هما اللذان تبرز فيهما صحة سريان القواعد القانونية ، أو إن شئت فقل مشروعية هذه القواعد المستمدة من شرعية النظام القانونى ككل . كما يقتضى الأمر أيضا تعيين وتحديد من هم أشخاص هذا القانون الذين يخاطبون بأحكامه ، وتعيين وتحديد مايلتزمون به من قواعد آمره ، ومايمتنعون عنه من قواعد نا هية، أى تحديد النطاق الهش لسلوك هذه الأشخاص . فالقانون الدولى العام لابد وأن يحدد: من ، وأين، ومتى. وكيف، يمكن أن تراعى قواعده وتلتزم أحكامه.

وغنى عن البيان ،أن ثمة منازعات تنشأ فى نطاق علاقات الدول بشأن هذه الاختصاصات. فبصرف النظر عن المنازعات ذات الطابع السياسى ،هناك منازعات ذات طبيعة قانونية قد تتعلق بما إذا كان الاختصاص الاقليمى على جزيرة من الجزر يخضع لولاية هذه الدولة أو تلك ، أو أن ممارسة الاختصاص لدولة من الدول على إقليمها البحرى ومياهها الداخلية يلزمها بموجب قواعد القانون الدولى العام على قبول دخول سفينة تابعة لدولة أخرى فى موانيها - الأمر الذى يبين معه أن تطبيق قواعد القانون الدولى فى مسائل الاختصاص بأنواعها، إنما تنحو ضمن ماتنحو إلى استبطان فلسفة هذا القانون فى تكريس حياة المجتمع الدولى، وإيضاح القواعد والمبادىء العملية لنشاط الدول فى هذا المجتمع، وتسوية مابينها من منازعات.

الابعاد الحضارية للحدود

ويعنينا فى نطاق هذه الدراسة حول الحدود الاقليمية للدولة ، أن تقتصر على الكلام عن الاختصاص الاقليمى بما يشمل اليابسة وما فى باطنها، والمياة الداخلية كالأنهار والبحيرات الداخلية، وكذلك المجال الجوى، والمجال البحرى كالمياه الاقليمية والمنطقة البحرية الملاصقة والجرف القارى وثروات اعماق البحر، التى تباشر عليها الدولة اختصاصات متتالية تتقلص تدريجيا كلما ابتعدنا عن الشاطىء فى اتجاه أعالى البحار.

ولكن يجدر بنا فى الأساس أن نشير الى أن الاختصاص الاقليمى ليس مجرد دلالة سياسية تتطابق مع السيادة أو تترادف مع الاستقلال لجزء من اجزاء المعمورة (الدولة) ، ولكنه يحمل فى ذات الوقت دلالة قانونية أهلته لممارسة السلطات القانونية عليه ، وعلى جميع الاشخاص الطبيعية والاعتبارية والممتلكات والاشياء التى فى نطاقه ، فضلا" عن الاختصاص فى رسم حدوده بالطرق المناسبة. وقد شاعت وتعددت النظريات القانونية التى تناولت طبيعة الاقليم والاختصاص فيه مرتبطا بالدولة فى مراحلها المختلفة من حيث هى ذات طبيعة إقليمية [٢].

١- فقد ظهرت الدولة ذات طبيعة اقليمية منذ أن دخلت البشرية عصر الاستقرار والزراعة على ضفاف الانهار، وارتبط ذلك بضرورة الثبات على ارض معينة ،ونشأت رابطة الاقامة المشتركة فى المدن والحضارات ·فمنذ ان توارت ظاهرة الاراتباط بالدم والقرابة الطوطمية فى حياة الترحال امام الروابط الاقليمية التى اصبحت اساس هذه الجماعات ربماالاسباب دينية كما هو شأن السكنى حول المعابد او اقامة الاجتماعات والأعياد المقررة فى مواعيد ثابتة ،او لاسباب اقتصادية كالعمل المشترك فى الزراعة والصيد حيث ظهرت الدولة كراعية لتنظيم العمل ،والقيادة فى السلم والحرب وفض المنازعات .،وظهر معها التباين مع المجموعات الاجتماعية السابقة من حيث طبيعة الاقليم ووظيفته .فالامر مفاده «أن الجماعة الانسانية التى تكون اساس الدولة تبدو مثبتة على اقليم معين» على حد تعبير الاستاذ أندريه هريو (٣).

٢- وطبيعى أنه فى ظل الامبراطوريات القديمة -وقد كانت سيادتها شخصية-لم يكن الاقليم محددا بحدود معينة ،وانما بحدود عامة تنساح عبرها الجيوش القائمة على حماية اقليم الدولة .فلم يكن هناك اثر رمزى معين لخط حدود يقسم بين الدول القائمة حينذاك ،وانما كانت الامبراطوريات القديمة تنتهى فى الغالب عند بحر أو وادى أو سلسلة جبال أو صحراء مترامية الاطراف تمثل نهاية العالم الذى تحتمى بفراغه ضد الغارات الخارجية .ففكرة السعة فى الامبراطورية التى تقوم على اساس قوة الامبراطور وسلطانه الأعلى لايمكن معها تصور هذه الامبراطورية الشخصية كدولة يمكن ان تنافسها مطالب دولة اخرى فى ممارسة السلطة ،بحيث تقيم معها عوازل او حدوداً معينة .ولهذا لم يكن الاقليم يمثل بطبيعته او فى حد ذاته اهمية كبيرة لمثل هذه الامبراطورايات ،اللهم الاان تكون قاعدة للتوسع وبسط نطاق قوة الامبراطور وسلطانه .هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فانه كان فى الاساس ملكية خاصة للملك او الامبراطور، وبذا لايعرف عنه تحديدات سوى تحديدات الملكية الخاصة .فالامبراطور هو مالك الأرض بما عليها وما فى باطنها، يبسط سلطته على كل شئ ،ويملك حقا مطلقا بحكم نظام الطبقات

والمهن القائم وقتئذ ،بدون تمييز فى ذلك بين الدومين العام والملكية الخاصة : الم يكن هذا هو حال مصر الفرعونية التى لم تفرق بين الملكية الخاصة للملك والدومين العام الذى تضفى عليه حقوق الاله (امون رع) والم يكن هذا حال الاسكندر(الاله الصغير) الذى أراد لنفسه امبراطوريةعالمية، لامقدونية،يربط فيها الشرق بالغرب والذى رسم لنفسه مراسم التقديس الدينية فى بلاد فارس وآمون رع فى سيوة وتزوج إبنة دارابعد أن تزوج (روكسانا) ابنة ملك سمرقند ، وأقام حفلة عرس تزوج فيها على الطقوس الشرقية هو وتسعون من قواده وأصدقائه عرائس فارسيات جميلات، ليمزج آسيا بأوروبا بروابط الاتصال والنسل على حد قول،بلوتارك. فهل كان يفعل ذلك بقصد توسيع امبراطورية مقدونية، وأن يصبغ الشرق بصبغة هيلينية، كأنه صاحب فكرة فى السياسة كما يقولون، أم أن قلبه هفا إلى قدسية الملك الشرقى وألوهيته، وتوسيع نطاق سيادته الشخصية . فرمى بذلك إلى الاستقلال بنفسه عن رجاله المقدونيين الذين أمرهم بالعودة إلى مقدونيا، ثم أخذ يدرب المجندين من فارس وغيرها على فنون الحرب (٤) .

ويذكرنا القرآن الكريم فى سورة الكهف أن ذا القرنين قد أقام سداً استخدم فيه خبث الحديد ليحول بين القبائل المتوحشة من يأجوج ومأجوج وبين امبراطوريته وسكانها ، فوضع بذلك حدا لما تصوره نهاية العالم فى آسيا الوسطى فى الأغلب الأعم.

وفعل بذلك مثل ما فعل امبراطور الصين Tsin حين أقام سورالصين العظيم على حدود الصين الشمالية ليحول بين حضارة الصين وبين غزوات القبائل البربرية المرتحلة والمغولية المتوحشة فى أعالى آسيا الوسطى، فوضعت بذلك حدا طبيعيا يحتمى وراءه المجتمع والحضارة من القبائل المرتحلة بالفراغ فى السهوب الشمالية، مما يقابل فى الجنوب الشرقى بحر الصين الذى مازالوا يعتبرونه حتى اليوم (فى النزاع بينهم وبين فيتنام حول أرخبيلParacels وجزر Spratley) بحرا إقليميا بدءا من جزيرة Hainan حتى ٢٠٠٠ كيلو متر إلى الجنوب والغرب على حساب وحقوق كل من فيتنام وماليزيا وأندونيسيا.

فى مصر الفرعونية :

وكان الحال فى مصر الفرعونية منذ رمى سنفرد مؤسس الأسرة الرابعة ببصره إلى ماوراء شبه جزيرة سيناء، وأسس على طول الطريق فيها القلاع والحصون ليحمى الوادى من غزوات البدو واعتداءاتهم، «باسم حورس إله الحقيقة ومحطم البرابرة» وتزخر كتب الأدب الفرعونى بقصص تأمين حدود مصر وقمع الثورات فى سيناء وفلسطين وماوراء نهر الفرات والجبال الشمالية فيما بعد الجولان والبقاع وبيلوس. فكل فرعون كان يرمى إلى الاستحواذ على أرض جديدة منافسا فى ذلك الفراعنة السابقين، يؤمن بها الوادى واستخراج الاحجار الكريمة من سرابيم الخادم حيث شيد معبد للآلهة حتحور سيدة الفيروز فى سيناء. ولعل قصة سنوحى تشير إلى أسوار أولئك الفاتحين التى أقيمت لترد تسرب الأسيويين - سكان الرمال كما أسموهم - عن ولوج أرض الدلتا. وكلما بعدنا إلى الشمال فى بلاد الشام نرى تماثيل الحجر الجيرى التى تشير إلى التغلغل المصرى خلال الدولة الوسطى ثم الدولة الحديثة، حيث تثبت حدود شمالية غائمة أسموها «حدود السماء» . وكذلك أسميت الحدود الجنوبية التى وصلت إلى وادى حلفا بعد الجندل الأول، أو أعقبت الجندل الثانى فى بلاد كوش «نهايات الأرض» التى أمنوها بعشرات القلاع والحصون، حيث كان الغزو من ناحية الجنوب، مثل ما كان الغزو من ناحية الشمال، مصدر خوف دائم لهم (٥).

فإذا أضفنا إلى ذلك ما جاء على سبيل المثال فى قصة سنوحى من حملة سنوسر(الإله الطيب) على ليبيا (أرض تيمح) ليعود بالأسرى والغنائم، ومن الحملات البحرية على كريت وأرض بنت بالصومال، لا ستطعنا القول أن هذه الموانع الطبيعية هى التى شكلت عند مصر الأمبراطورية لا حدودا للإقليم وإنما نهاية للعالم، والمعمورة، ما بين السماء والأرض فهى تقابل أرضا بأرض لادولة بدولة وإنما تقابل ايقاعين مختلفين وحضارة مستقرة بقبائل وشعوب رحل من الغرباء يصعب التوفيق بينهما.. فقد أملت عليهم الآلهة حقوقا وصكوكا دينية بمطاردة الغرباء من سكان الرمال المحيطة بواديهم الخصيب. فالمصريون فى العصور القديمة كانوا على استعداد مستمر لأن يروا فى الاجانب - كما فعل الرومان وغيرهم -

أعداء طبيعيين- يمقتهم «آمون رع» . وهذه كانت رسالة تحتمس الثالث عندما عبر بجيوشه نهر الفرات ودمر قادش، وهرب من أمامه العدو الخسيس على جبال ميتانى. وهذه كانت رسالة الجيوش الثلاثة التى حملت أسماء آلهة طيبة وهليوبوليس وبى رعمسة التى عاودت الظهور فى حملة رمسيس الثانى على قادش (وهى اليوم تل بنى مفد بالبقاع) ودحره جيوش الحيثيين ، ثم عقد معهم معاهدة قادش سنة ١٢٩٤ ق.م. ، وهى المعاهدة التى تحركت فيها حدود مصر على الموانع الجبلية والنهرية ذات الأهمية الاستراتيجية، والتى مازالت عوامل الأمن القومى والجيوبوليتك تلعب فيها دورها (منذ الفراعنة حتى مصر الفاطمية والمملوكية ومصر محمد على) بامتداد خليج العقبة إلى غور نهر الاردن، شمالا حتى نهاية الديار المصرية- كما أسماها المماليك -على جبال طوروس من جانب، والرها والكرك فى الجانب الشرقى، بما يضم أرض فلسطين، فى الجانب الآخر.

عند الإغريق :

أما الإغريق الذين وفدوا على بلادهم من الشمال، فغزوها واختلطوا بسكانها الأصليين، فقد عانوا من صراع الليديين معهم تارة، ثم عزو الفرس لهم (على يد دارا الأول فى معركة ماراتون قرب أثينا سنة ٤٩٠ ق. م.) تارة أخرى ولم يعد هناك ملك مثل أجاممنون الذى كان يقود قبائل الإغريق فى آسيا الصغرى من خلال مجلس استشارى منظم، كما يحدثنا هوميروس فى الإلياذة، وقد انتقل هذا التنظيم القرابى genos إلى تنظيم إغريقى مغلق على حياة كل تجمع واسع من العائلات أو القبائل المتقاربة، فيما عرف «بالدولة - المدينة» المسورة ، وهى ترجمة رديئة لكلمة polis الإغريقية، لأنها لم تكن مدينة بالمعنى المعروف ولا دولة بالمعنى المفهوم، وإنما تدل على حقيقة النظام السياسى للإغريق القدماء فى أثينا وغيرها من الوحدات السياسية فى بلاد اليونان القديمة كطيبة واسبرطة.. الخ . فقد شغلت كل جماعة من هذه المجموعات أرضاً- أوإقليما معيناً - يتميز بمزايا استراتيجية، أمنية واقتصادية . وأعدت تنظيما اجتماعيا وسياسيا يتفق ومقتضيات الظروف التاريخية والاقتصادية والجغرافية والأمنية التى فرضت نفسها على حياة السكان فى زمان حافل بالحروب والمنازعات.

وأصبح هذا هو حال كل بلاد الإغريق منذ ألجأهم غزاة دارا إلى السكنى على قمم الجبال والتلال حيث بنوا القلاع Acropolis المسورة وجعلوها ملتقى لتبادل المنتجات فى شكل سوق مغلق، كما جعلوها مركزا لممارسة حياتهم الدينية ومكانا لإنعقاد الجمعية ومناقشة أمورهم السياسية والإجتماعية والإقتصادية والفكرية وقضاء وقت الفراغ، حتى كان بها مسرح المدينة أيضا . وعادة ما اقتضى هذا تيسير طرق الاتصال الخارجى عن طريق البحر، الذى أطلت عليه المدينة، أو كان لها ثغر يطل عليه - كثغر بيروس Piroeus بالنسبة لأثينا - ضمن مجموعة القرى والدساكر المنتجة للزراعة أو الصيد المحيطة بها.

وطبيعى أن يفكر الإغريق فى الوحدة السياسية المغلقة polis، والمستقلة بنفسها عن الأخرى، كل واحدة منها تشكل إقليماً Astyيتكون من قلعة أو قصبة مسورة Acropolis تحيط بها بضعة أميال من القرى الزراعية والأراضى التابعة والثغر البحرى، فضلا عن أن كثيرا من هذه الوحدات السياسية كانت تقع فى جزر، وكانت متناثرة على امتداد سواحل شاسعة.

وهكذا بدا دور القصبة أو القلعة Acropolis هو السبب الحقيقى فى ظهور هذا الشكل السياسى من الوحدات السياسية المستقلة Polis بما حولها من أراضى وقرى Asty فقد فكروا فى الوحدة المستقلة الحصينة كموضع منيع أمين، كما فكروا فى المعبد الذى يضمه الاكروبول كمظهر طبيعى لاستقلال هذه الوحدة السياسية بآلهتها ولكن كهنة هذه المعابد لم يكونوا يمارسون أية سلطة، فقوام الدولة - المدينة (الوحدة السياسية Polis) الإغريقية كانوا من النبلاء والعامة والأحرار، وهما طبقتان اندمجتا فى هيئة واحدة مشتركة من المواطنين الذين يتمتعون بالحقوق ويملكون الأرض ويديرون الأمور فى الجمعية على صورة الديمقراطية المباشرة التى جعلت من كلمة Polis معنى يطابق الشعب أو المجتمع - الجماعة السياسية - وقد جاء ذلك على لسان الملك كريون فى مسرحية سوفر كليس «أنتيجون» حين صاح فى وجه أبيه : «هى إذن ليست دولة Polis تلك التي يحكمها واحد بمفرده»، مما يذكرنا بأن كلمة polis لا تعنى دولة أو مدينة، ولكنها تعنى الشعب أو المجتمع الذى يدير

شئونه بنفسه فى الجمعية أو مجلس المواطنين وهذا هو الفارق بين حياة الديمقراطية التى اتخذت العدالة معياراً عند الإغريق وبين الاستبداد الشرقى (٦) .

ومن ثم نرى أنه إذا ما ترجمت العبارة الشائعة لارسطو «الإنسان حيوان سياسى» ترجمة دقيقة، نراها تقول «الإنسان مخلوق يعيش فى مجتمع Polis » ، بمعنى أن مثل هذه الوحدة السياسية الديمقراطية هى الخليقة بحياة الإنسان، والتى يمكن أ ن يحقق فيها قدراته الروحية والأخلاقية والفكرية- كنموذج للتنظيم السياسى.

ويمثل هذه الضرورة لحياة الإنسان أينعت فكرة الملكية الفردية لأرض الإقليم عند الإغريق والرومان، على خلاف ما كان عليه الحال لدى التتار والجرمان وبعض الشعوب السامية والسلافية.

وقد أخذ حق الملكية الفردية للأرض شوطا من التطور.. ولكن حسبنا أن الملكية الفردية للأرض قد تقررت للمواطنين الأحرار، دون العبيد والغرباء ولكنها الملكية الفردية للأرض وحدها، دون غلتها التى كانت تخصص فى جزء كبير منها للشيوع بين الجميع. فالفرد مالك مطلق للأرض، ولكنه ليس مالكاً مطلقا لغلتها.

وهكذاعرف الإغريق حدود الملكية الخاصة للأرض المنتجة لغلة إقليم وحدتهم السياسية، ولكنهم لم يعرفوا الحدود العامة الفاصلة بين أى من مجموع هذه الوحدات والأخرى بمعنى متميز يشير إلى نظرية الإقليم وحدوده سواء فى علاقة بعضهم مع بعض أو مع غيرهم، لأن كل وحدة سياسية من هذه الوحدات Polis لم تكون أو تؤصل دولة بالمعنى المفهوم، وإنما جماعة من الناس قليلة العدد (حوالى ٥٠٠٠ نسمة على مايذكره أفلاطون فى الجمهورية)، تعيش على الإكتفاء الذاتى. وهى إن مثلت سلطة سياسية ديمقراطية على إقليم ما، فقد ترك هذا الإقليم للتوسع فى الجوار دون أن تحده حدود معينة.

على أن المجتمع الإغريقى الإقليمى المحدود الذى افتتن بعبادة المدينة،

واتخذها صورة فلسفية للحياة السياسية، دون الولوج بها إلى النظام الإقليمى المتضخم الأبعاد، واختيار فرصة التوحيد لنفسه بنفسه، قد استطاع بقيادة ديماجوج الشعب العظيم بركليس، الذى قبض على السلطة خلال ثلاثين عاما فى أثينا، أن يعقد عددا من المحالفات مع المدن الأخرى وأن يخلق نوعاً من التنظيم الكونفدرالى للمدن الإغريقية التى امتدت بتأسيس مستعمرات جديدة ومحطات تجارية من جنوب إيطاليا إلى البحر الأسود. ولكن هذه المحاولة نحو دولة عالمية لم تلبث أن ضعفت بعد حرب البلوبينيز والحرب مع اسبرطة والحرب بين اسبرطة وطيبة، ثم الحرب ضد ساموس التى كانت أمرا تحتمه العداوة البحرية وتهدد تجارة أثينا فيما وراء البحار، - حتى قضت عليها سلسلة الضربات القاضية التى كالتها روما إلى جميع منافسيها بين عامى ٢١٠ و١٦٨ ق.م. وهكذا دحرت روما أثينا البركلية وقضت على مجتمع المدن الهلينية المستقلة.(٧)

عند الرومان :

وقد كان تركيب الدولة الرومانية شيئا يناقض التنظيم الإغريقى المتمثل فى عبادة دولة - المدينة. فقد كانت دولة روما ثنائية التركيب والرعوية، أى أن ولاء المواطن يتوزع بين المدينة أو الإقليم الذى ولد فيه وبين الدولة التى امتدت سيادتها فى الآفاق، مما ساعد على انجاز الوظيفة التاريخية لدولة روما الامبراطورية. فعندما انتقلت السلطة السياسية والعسكرية من الملك (الذى اقتصرت سلطته على الشئون الدينية) إلى الحاكمين المنتخبين (القنصلان Consuls) فى العهد الجمهورى، وأصبح للعامة - إلى جانب البطارقة (الأعيان) - حق التصويت وتولى الوظائف العامة وحق الزواج من طبقة البطارقة، كانت لهاتين الطبقتين فقط (البطارقة والعامة) حقوق المواطنة الرومانية. أما العبيد والأجانب فلم يكن لهم نصيب يذكر فى شئون الدولة. على أن هناك جماعة أخرى اعتبرت فيما بعد من المواطنين الذين لهم حق التصويت بقدر ما يملكون من أرض، وهم من أسموا بالبروليتاريا الذين سكنوا من المستعمرات أو ذهبوا لتكوين مدن لاتينية أو

كانوا من الأجانب الذين جندوا وأبلوا بلاء حسنا فى الحروب، ثم أصبحوا جند حاميات فى المراكز والمستعمرات الهامة.

وفى هذا الطور المتقدم من أطوار روما الجمهورية بدأ العالم يشهد نوعا جديدا من الدولة ، حيث المدينة أصبحت مركز الحكومة وجميع الديانات، وبها معبد جوبتر Jupiter كبير الآلهة، ومنازل الأثرياء وحوانيت الصناع. وكانت سياسة إرضاء العامة فى صراعهم مع البطارقة واضحة إلى حد كبير، فصدرت مختلف القوانين لتأمين حقوق هؤلاء وضمان حريتهم وحمايتهم حتى كان قانون الألواح الأثنى عشر (سنة ٤٥١ ق.م.) الذى كان أساس القانون الرومانى كله.

وفى هذا الطور أيضا اهتم التشريع بالثروة الأساسية ممثلة فى ملكية الأرض المزروعة بالحبوب، فظهرت الملكية الفردية للملاك وخاصة من رجال الجيش، بينما أخذت الملكية الجماعية للأسر والعشائر فى التضاؤل، ووزع نصيب من الأراضى المفتوحة على العامة استجابة لمطالبهم، حتى عم السلام أرجاء الدولة الرومانية Pax Romana، وازدهرت الأرض، وازدادت التجارة الواردة على روما، وأنشئت القلاع والمواقع العسكرية ذات الأهمية الاستراتيجية، وأقيمت المستعمرات والمستقرات والصغيرة التى تتمتع بمختلف الامتيازات بين ظهرانى الشعوب المغلوبة ما بين حوض نهر بو وجنوب شبه الجزيرة الايطالية .

وبهذا التوسع فى منح الحريات المدنيتوحقوق المواطنة الرومانية لبعض المدن، والحكم الذاتى لبعضها الآخر، مع منحها حق الزواج والاتجار فى روما، أصبحنا نلمح على عهد الجمهورية مجتمعا يتجاوز مرتبة «دولة المدينة»، ونلمس لأول مرة نوعا من «أمة» تحكم نفسها بنفسها بسلطة مستمدة من النظام القانونى Civitas Romanus حتى يمكن أ ن نطلق عليها وصف الدولة Stato - تلك الدولة التى غدت روما عاصمة سياسية واقتصادية وتجارية لها، حتى كانت نوعا جديدا من المدينة - الدولة.

ولكن يجب أن يلاحظ أنه حتى ذلك الحين من عصر الجمهورية لم تقبل روما

فى مواطنيها (المتمتعون بحكم القانون الرومانى)، إلا الأسر والعشائر التى تنتمى إلى شعائرها الدينية، حسب الإحصاء المعمول به كل خمس سنوات للقيام بانتخاب القناصل. فالغزو أوالضم فى حد ذاته غير كاف لادخال أبناء الأقاليم المغزوة فى نطاق الدولة، وإن كان يمكن لروما أن تسمح لبعض أبناء الشعوب المغلوبة – كأفراد– أن يعيشوا بين جوانحها، وأن يقبلوا فى إقامة شعائرها، حتى يصبحوا رومانا فى المدى الطويل، وأن يسموا أنفسهم روماناً، كما فعل بعض أبناء بلاد *الغال* وشبه *الجزيرة الايبيرية*. ومن ذلك أن يوليوس قيصر قد منح بعض معلمى الفنون الحرة من أبناء المدن الإيطالية الأحرار وأبناء غالة الجنوبية سنة ٤٩ ق.م. حقوق المواطنة الرومانية، فأغضب عليه الرومان لما فى ذلك من خروج على فكرة القانون واحترامه [٨]. فروما كانت حتى ذلك الحين لا تستطيع أ ن تهضم فى مواطنيتها وحكم القانون الرومانى شعبا غير شعبها، ولاأرضاً غير أرضها. ولم تكن هذه سياسة خاصة بروما وحدها، ولكنه مبدأ متوارث من العهود القديمة، لا تستطيع روما أ ن تنائى عن تطبيقه باختيارها، كأى مدينة أخرى من المدن القديمة، دون أن تمس مشاعر مواطنيها وعقائدهم والأفكار الغامضة التى تمثل النظام العام لهم فى مدينتهم وجمهوريتهم.

وكذلك كان الحال بالنسبة للإقليم، فقد ظل ثابتا مستقرا على حاله، عند الحدود التى رسمها له الملوك المتألهين بالسلطة الدينية، حيث كانت روما مازالت وثيقة الارتباط بالدين منذ عهد المدينة البدائية، حيث كان الإقليم فى مفهوم الرومان مازال المكان المسور الذى يقام فيه الشعيرة الدينية، والاحتفالات المقدسة فى كل عام. فلا يدور بخلد أحد أن روما كانت تتوسع باقليمها الذى تطبق فيه شعائرها الدينية وقانونها الرومانى عن طريق الغزو، أو يدور بخلد أحد أن الرومان كانوا يقبلون تشكيل أمة واحدة مع غيرهم من الشعوب، أو كان يمكن ذلك فى حكم نظامهم السياسى والقانونى ومن ثم، فان الحدود Lines التى جاء ذكرها فى أشعار أو فيدوفرجيل، أو فى الأعمال المختارة ليشيشرون، عندما يطرون حقول الكروم وورود البساتين، لم تكن إلا حدود الملكيات الفردية الصغيرة، أو بعض

أسوارالإقطاعات والقرى التى دخلت مواطنية روما اللاتينية، والتى كان يتوسطها قصر السيد الكبير الذى كان يملك أو يوجه الدومين ويمارس عليه سلطته المطلقة. ولم تكن بحال من الأحوال حدودا لإقليم الدولة حيث كانت السيادة شخصية -impari-um romanum ولم تكن أبدا سيادة إقليمية، حتى بعد أن غزت روما أقاليم أخرى فيما وراء البحار وأصبحت امبراطورية.

والأصل فى «شخصية السيادة» ما هو معروف عن الرومان منذ القديم عن شخصية السلطة . فالسلطة لم تكن متوارثة، ولا تنتقل من شخص إلى آخر. وإنما كانت مشخصة فى الملك أو الحاكم الذى كان سيد الأرض والناس، وعليهم جميعا حق الطاعة، ويتصرف هو فى جميع الأموال، إذ لم يكن هناك فصل بين أموال الملك والدومين العام على النحو الذى نعرفه اليوم. فالملك، ومن بعده القناصل، كانوا أصحاب حق الأمر والنهى على الرومان أينما كانوا، وبصورة مطلقة تبلغ حق الحياة والموت.

ومؤدى ذلك، أن التوسع فى سيطرة روما على الشعوب المقهورة والبلاد المغزوة الأخرى كان من قبيل هذه السيادة الشخصية لا الإقليمية، من حيث أن هذه البلاد المقهورة لا تتحد فى الدولة الرومانية in civitate ولا يطبق فيها قانون روما- الدولة الأم- كما يحدث لدى الدول والامبراطوريات الحديثة، وإنما يطبق على أهلها الذين يعدون dedittie أى أجانب وغرباء (أعداء) ما يصدره الحاكم الرومانى فى بلدهم من أوامر وقوانين، بعد أن تحطمت مدينتهم وسلبوا أهليتهم، وأصبحوا كالأشياء العديمة.لايملكون أموالا أو أراضى أو مياه أو مساكن، ولا يعتد لهم بآلهة أو معابد أو طقوس عبادة أو قانون. فهم مع بقائهم على أرض بلادهم لا يعتبرون من قبيل المجتمعات المنظمة فى دولة أو مدينة بل هم بمثابة الغرباء الأجانب Peregrini، والاعداء nostis فى نظر الانظمة القديمة (٩). وقد بسطت عليهم روما ظلها أو سيادتها الشخصية عن طريق هؤلاء الغزاة المغامرين الذين اختصتهم سلطتها السياسية وقوتها العسكرية بمراسيم توليتهم حكاما على تلك الاقاليم التى امتدت فى عهد الامبراطورية من وسط الجزيرة البريطانية والبرتغال حتى آسيا الصغرى ونهر الفرات وقد عرفت روما فى سبيل هذا التوسع الامبراطورى فى البلاد

الأخرى نوعين من العلاقة : (١) الاخضاع dedittei للبلاد المقهورة التى فقدت أهليتها وأصبحت أرضا مباحة تخضع للسيادة الشخصية للحاكم - المواطن الرومانى- الذى تفوض فى شخصه كافة حقوق السيادة الشخصية لروما، ويصبح سيدا مطلقا على هذا الاقليم وسكانه فهو الذى يحدد المكوس والضرائب ويمارس السلطة العسكرية والتشريعية ويقوم على تنظيم القضاء، ولا يخضع لأى قانون حين يحكم بين رعاياه فى إقليمه، وإنما يحكم بمشيئته المطلقة (١٠)

(٢) التحالف أو التعاهد foederatif socii ويعامل أهل هذه العلاقة معاملة أفضل من سابقيهم. فخضوعهم لسيطرة روما لا يحول دون الإبقاء على نظامهم الإقليمى، وبقائهم منظمين فى مدينتهم، والإبقاء على دستورهم وأحكامهم ومجلس شيوخهم وقوانينهم وقضاتهم ومساكن قضائهم ومدارسهم. فمدنهم تعتبر أشبه ما تكون بالبلاد المستقلة، وعلاقتهم بروما أشبه ما تكون بعلاقة الحليف مع حليفه (١١) والتى تخضع لقانون الشعوب Jus gentium (١٢)وقد استجد هذا القانون فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ليحكم فى علاقات الرومان والأجانب فى روما أو بين هؤلاء الأجانب لبعض وبعض (الذين تعترف روما لبلادهم بقسط من الحضارة) وخصص لهم بريتور الاجانب للحسم فى المنازعات ذات العنصر الأجنبى، بعيدا عن شكليات القانون الرومانى فى الدعوى، وحماية للنشاط التجارى المتسع فى ارجاء الامبراطورية الرومانية.

ولكن كثيرا ما كان الرومان يصيغون بنود هذه المعاهدات صياغة غامضة، تنقل علاقتهم مع هذه البلاد التى أسميت مستقلة من التحالف إلى الاخضاع والتبعية. بل كثيرا ما نقضت روما هذه المعاهدات وفرضت الجزية (١٣). ونضرب لذلك بعض الأمثلة :

١- منذ توسعت روما عبر الادرياتيك، وظهرت على المدن اليونانية سنة ١٩٩ ق.م وقد سادت علاقتها مع هذا المدن أساليب ملتوية. فأرجوس أخضعت سنة ١٩٨ ق.م إخضاعاً تاماً عقاباً لها على محالفتها للملك المقدونى فيليب . أما أبونت Opunteفقد عقد الرومان معها معاهدة تحالف، مالبثوا أن فسخوها فى العام التالى

بسبب انتصار العامة، وشيوع الحقوق الديمقراطية فيها (١٤). ولم تنس روما لمقدونيا تحالفها مع قرطاجنة، واحتجت الجماعة الاستعمارية فى مجلس الشيوخ على قرار القائد فلومنيوس إعادة فيليب إلى عرشه، وتحريره لكل بلاد اليونان التى تشبع بثقافتها من سيطرة مقدونيا وروما، واعفائها من دفع الجزية .وهكذا أضحت كل بلاد اليونان ومقدونيا بلاد مخضعة خضوعا فعليا للسيادة الشخصية لروما، ويحكمها قائد رومانى، فيماعدا أثينا وأسبرطة اللتين سمحت لهما روما بأن تحتفظا بشرائعهما (١٥).

٢- أدت العلاقة بين روما وقرطاجنة إلى عدد من الحروب، وعدد أخر من اتفاقيات الصلح وعهود التحالف. ففى عام ٥٠٨ ق.م. عقدتا معاهدة اعترفتا فيها بسيادة روما على شواطئ لاتيوم، بشرط أن لايسير الرومان سفنهم فى البحر المتوسط غربى قرطاجنة، وأن لاينزلوا فى سردينيا أو ليبيا إلا لفترات قصيرة يصلحون فيها سفنهم أو يقوموا بتموينها (١٦) . وهكذا ظلتا حليفتين صديقتين، ليقضيا على مطامع بيروس ملك أبيروس فى الكعب الجنوبى لايطاليا، ويعملان معا ضد قيام أية دولة قوية فى صقلية، وضد جميع الغزاة (١٧) . ولكن مالبثت الفرصة أن واتت روما عندما طلبت مسبقا المساعدة من روما ضد قرطاجنة التى تولت القضاء على القرصنة فى البحر المتوسط، ووضعت حامية بحرية فى مسينا. وكانت الغيرة قد أفعمت قلوب الرومان من قوة قرطاجنة فبدأت الحرب الأولى بينهما باستيلاء روما على مسينا، وأنزلت روما أسطولاً فى البحر هزمت به الأسطول القرطاجى، حتى طلبت قرطاجنة الصلح (سنة ٢٤٠ ق.م.) الذى أصبحت به صقلية- ماعدا سيراقوزة- ولاية مقهورة وضيعة من أملاك روما (١٨).

وقد دام هذا السلام اثنين وعشرين عاماً، حتى قامت بينهما الحرب البونية الثانية (٢١٨ - ٢٠١ ق.م.) التى أبلى فيها هانيبال بلاءً عظيما فى ايطاليا على مدى خمسة عشر عاما، يقاتل الرومان وجها لوجه، حى هزم فى معركة زاما قرب قرطاجنة سنة ٢٠٢ ق.م.

ثم قامت الحرب البونية الثالثة التى تذرعت لها روما بأن قرطاجنة قد خرقت شروط الصلح بينهما، لأن قرطاجنة التى دافعت عن نفسها ضد النوميديين - بتحريض من روما للنوميديين - قد دخلت هذه الحرب دون استئذان روما. وطلبت روما أثناء مفاوضات الصلح الأخيرة رحيل سكان قرطاجنة عن بلادهم وتسليم أسلحتهم وممتلكاتهم، بل وتسليم هانيبال الذى آثر تجرع السم ومات سنة ١٨٣[١٩] وهكذا أصبحت بلاد أفريقية كلها مخضعة لروما، لاحليفة لها، وسميت ولاية «أفريقية» الرومانية. فلم يعقد صلح أو توقع معاهدة لأن قرطاجنة لم يعد لها وجود، بل جاءها أثرياء روما وقسموا أرضها ضياعا، وورثوا تجارة قرطاجنة[٢٠] وثبتت روما أقدامها فى الامبراطورية المفتوحة.

٣- يحار الكتاب والمؤرخون فى حقيقة العلاقة بين البطالمة فى مصر والسلوقيين فى سوريا وبين روما التى تأرجحت بين التحالف حينا وبين الاخضاع حينا آخر فلاشك أن مصر كانت دولة مستقلة استقلالا كاملا فى عهد بطليموس الأول والثانى والثالث، الذين حكموا البلاد (ومن جاء بعدهم) كأصحاب سيادة شخصية مطلقة بحق الفتح، وإن لجأوا إلى اتخاذ صفات الفراعنة وديانتهم لصبغ مركزهم وحقهم الالهى بصبغة شرعية أمام رعاياهم من المصريين على غرار مافعله الاسكندر ابن آمون رع، كما حملوا فى الوقت نفسه أسماء آلهة اغريقية أمام رعاياهم من الإغريق فى مصر[٢١].

وقد خرجت مصر على يد هؤلاء البطالمة الأوائل من الصراع العنيف بين خلفاء الاسكندر ، ولا سيما السلوقيين فى سوريا ، أقوى وأغنى دولة هلينستية فى حوض البحر المتوسط سياسيا واقتصاديا، بالسيطرة على بحر إيجة وشواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية.

فالسيطرة على بحر إيجة كانت تقوض عزلة مصر أمام دولة السلوقيين (نسبة إلى سليقوس أحد خلفاء الاسكندر والذى اختص بسورية وأسس أنطاكية عاصمة لها)[٢٢].

وقد أقام البطالمة الآوائل هذه السياسة للدفاع عن كامل استقلال مصر، فأقاموا حيادا دقيقا مع روما (معاهدة سنة ٢٦٣ ق.م.) وكذلك مع سيراقوزة وقرطاجنة، وقد كانت كلها علاقات مقصورة على التجارة وتبادل المجاملات، دون أن تسعى مصر إلى التقارب مع أحداهما ضد الأخرى ولهذا رفضت مصر فى عام ٢١٥ ق.م. محاولة سيراقوزة أن تستدرجها إلى التحالف مع قرطاجنة، كما رفضت عرض فيليب الخامس أن يساعد سوسيبوس فى إخماد ثورة شعب مصر الداخلية [٢٣].

وقد شغلت روما فى الوقت نفسه عن الاهتمام بشرق البحر المتوسط، بعد أن خرجت منهكة القوى من حرب الغال واخضاع أنحاء ايطاليا، وكذلك حروب قرطاجنة والحروب ضد فيليب الخامس ملك مقدونيا.

ولكن روما التى أخذت ترتاب فى تحالف انطيوخوس الثالث ملك سلوقية مع فيليب الخامس ملك مقدونيا، وإذماعهما شن حرب مشتركة فى أوروبا، وعقدهما معاهدة سرية لتقسيم ممتلكات مصر، مالبثت أن ولت وجهها تجاه شرق البحر المتوسط، وأرسلت سنة ٢٠٠ق.م. بعثة من ثلاثة على رأسهم نيرون للوقوف على نوايا أنطيوخوس ازاء روما ومصر التى دخلت فى عصر الاضمحلال والضعف ، وأخذ ملوكها يسعون إلى مساندة روما. فاذا ما غزا انطيوخوس الرابع الاسكندرية سنة ١٦٨ ق.م أرغمته روما على يد سفيرها C. Popilius Laenas – بعد أ ن خرجت منتصرة من حروب مقدونيا – على الانسحاب [٢٤] فى شتاء العام نفسه.

منذئذ دخلت مصر رويدا رويدا فى سياسة اخضاع روما لها، إذ لم يسع روما أن تترك لأحد أ ن يضم مصر بين جوانحه. وأخذ ملوك البطالمة بعد وفاة بطليموس السادس (سنة ١٤٥ ق.م.) يسعون إلى مساندة روما لهم بصفة مستمرة، ولا سيما ازاء الهبات الشعبية للمصريين الذين أذلهم حكم البطالمة الإغريق، فضلا عن التهديدات الخارجية. فبطليموس إيبون Apion يهب ممتلكات مصر فى برقة بالشمال الإفريقى للشعب الرومانى (سنة ٩٦ ق.م.) ، وفى سنة ٨١ ق. م. اتبع الاسكندر الثانى نفس الطريقة – كعادة ملوك آخرين فى ذلك الوقت – بأن أوصى بمصر

نفسها لرومان، ولكن مجلس الشيوخ الرومانى رفض الهدية أو الوصية التى كانت إرثاً أكبر من أن تبتلعه أفواه الرومان فى ذلك الوقت (٢٥) .وعندما تزعزع مركز بطليموس الحادى عشر فى مصر فر منها إلى روما، ولم يفلح فى استعادة عرشه سنة ٥٥ ق.م إلا بمساعدة جابينوس الحاكم الرومانى لسورية (٢٦).

ولكن عندما خلفت كيلوبطرة السابعة،. وهى أشهر من حملن هذا الاسم، على عرش مصر، لم تعد ترنو إلى المحافظة على استقلال مصر فحسب ، بل أخذت ترنو إلى تكوين امبراطورية مصرية عالمية تضم فيها جوف سورية وجنوب آسيا الصغرى، بل حاولت وكادت أن تنجح مرتين، بفضل أسلحتها الذرية، وعن طريق قيصر أولا وأنطونيوس ثانيا، فى التربع على عرش الامبراطورية الرومانية بأجمعها. ولكن حرص وكفاءة أكتافيوس أغسطس قضت على هذا الحلم إلى الأبد، كما قضت على دولة البطالمة نفسها، منذ داست الاسكندرية أقدام أكتافيوس وانتحرت كيلوبطرة. منذئذ أصبحت مصر ولاية رومانية مخضعة تماما (٢٧).

٤- وكانت أرمينية هى المثل الجدير بالنظر والاعتبار فى هذا الخصوص. وهى صقع فى غرب آسيا يقع على بحر بنطس (الأسود)، كان مسرحا للقبائل الرحل من الجنس السامى فى الجنوب والجنس الآرى الأرمنى فى الشمال، تخضع لهؤلاء حينا ولاؤلئك أحيانا، ولكنهم كثيرا ما كانوا يتركونها مستقلة، تتمتع بنظمها الخاصة باعتبارها تخوما تقع على الحدود بين بعضهم وبعض . وكان يحيط بأرمينية، بلاد الأنهار العظيمة (كدجلة والفرات والرس والكروكريونة) دول أكثر منها عظمة وقوة . وقد ظلت قرونا طويلة مطمحا لهذه البلاد والامبراطوريات المتنافسة. فبينما كانت جبالها المرتفعة تحول دون اتخاذها للدفاع عن نفسها، كانت وديانها وسهولها طرقا ميسرة لعبورها ما بين بلاد النهرين والبحر الأسود. فخضعت للأشوريين والميديين، واقتتل عبرها الفرس واليونان والرومان للسيطرة على طرقها، والانتفاع بها فى التجارة والحرب. ومن بعد احترب من أجلها البيزنطيون والمسلمون، وروسيا وبريطانيا. ولكنها ظلت مع ذلك فى كثير من هذه العهود مستقلة من الناحية الرسمية، وأحيانا من الناحية، الفعلية، رغم ما حاق بها من الضغط الخارجى،

محتفظة بما لها من نشاط اقتصادى فى التجارة والزراعة، ومن استغلال ثقافى أثمر فى دينها وكنيستها الأرمينية الخاصة، وآدابها وفنونها.

فاذا تتبعنا أحداث أرمينية فى عهد الرومان، نرى أن البارثين (أسلاف الفرس الساسانيين) كانوا هم الأقوى الذين تناقضت مصالحهم من عدة نواح مع روما حول أرمينية ومركزها الاستراتيجى الهام، فى محاولة روما تنظيم شئونها ومصالحها الامبراطورية فى الشرق. فخاضت روما حروبا عديدة مع البارثيين والفرس للسيطرة على أرمينية منذ اجتاحها پومبين من البحر الأسود ونهبها، حتى كان عهد قيصر و كاسيوس وانطونيوس وأغسطس فقد استولى قيصر فى معركة زيلا Zeila سنة ٤٧ ق.م. على جانب من أرمنيا الصغرى وجعل منه إقليما رومانيا .ولكن أحدا لم يستطع أن يمتطى ظهر جبال أرمينية الشرقية فى مواجهة الميديين والبارثيين وإنما قفلوا عائدين إلى جوف سورية وأنطاكية ·فعندما عبر كراسوس نهر الفرات مؤملا أن يفعل بأرمنية ما فعله پومبى- دارت عليه الدائرة عندما إلتقى بالبارثين فى كرهيه Carrhe · فقتل ولده، ثم قتله القائد البارثى بأن صب فى فمه الذهب المصهور، ومثل برأسه فى دور بنثيوس كما جاء فى مسرحية ليوربيدس (مسرحية باخية) . فلما حاول انطونيوس المحاولة نفسها - لتحقيق آمال قيصر فى اخضاع بارثيا والأخذ بثأر كراسوس - إرتد مهزوما إلى غربى الفرات دون أن يقرب قلاع بارثيا، فاقدا نصف جيشه ولكنه فى تقهقره وإرتداده عاود ضم أرمينية الصغرى إلى الإمبراطورية الرومانية، وأقام لنفسه موكب نصر لدى كليوبطرة الاسكندرية، صدم به مشاعر الرومان.

وهكذالم يحدث قط أن استطاع الرومان توسيع حدود امبراطوريتهم فى الشرق إلى ماوراء الفرات وأرض الجزيرة، تمثلا بامبراطورية الاسكندر. وشاهد ذلك أنه عندما جاء أوكتافيوس أغسطس وحاول المحاولة نفسها وقف عند الشاطئ الغربى لنهر الفرات وجعل منه الحد الطبيعى للامبراطورية الرومانية فى الشرق، وتاركاً أرمينية لحالها دولة مستقلة. وقيل فى هذا أن أكتافيوس أغسطس قد كسب

بالسلم أكثر مما كسب بالحرب، وأنه عاد بذلك إلى الأخذ بمعاهدة رانايا Rhanaia (سنة ٦٣ سنة ٦١ ق.م.) التى أقرت فيها روما باستقلال أرمينية فى رأى البعض أو تركها تحت السيادة المشتركة Condominium لروما وبارثيا فى رأى البعض الآخر.

ففى ذلك الوقت من أعقاب الحروب مع قرطاجنة ومقدونيا حرص العهد الامبراطورى على دور كبير للدبلوماسية الرومانية وسفرائها فى الخارج.

وكان من بوادر هذا الدور قيام بومبى بتنظيم الامبراطورية فى الشرق، مابين بلاد وأقاليم رومانية مخضعة (مثل سورية وبين بلنيسيا وبنطس) وأخرى كمجرد بلاد تابعة (مثل أرمينية وكابدوشياوغالاسيا) وهى كلها من أقاليم آسيا الصغرى وممالكها فى ذلك الحين وكان من نصيب أرمينية أن عقدت بشأنها معاهدة رانديا بين البارثيين والرومان، بغرض تأمين المصالح الاقتصادية وطرق القوافل بين الشرق والغرب، وتأمين عبور التخوم والحدود وحسن الجوار بين الدولتين الكبيرتين عبر جبال وتخوم أرمينية. فقد كانت أرمينة هى مدار الصراع بينهما على مايزيد على قرنين أو ثلاثة من الزمان، بل كانت أكثر البلاد إثارة لمشاغل روما فى الشرق طوال العهد الامبراطورى.

ولكن من ناحية أخرى كان المركز الاستراتيجى الهام لأرمينية يمثل تهديدا دائماً لبلاد ما بين النهرين وبابليون، ما دامت تستبد أو تخضع بعلاقة من التبعية لروما. ولهذا مرازبة البارثيين لايفتأون عن تأكيد نفوذهم بالولوج إلى البحر الأسود والسيطرة على جبال أرمينية والقوقاز، حتى يستطيعوا القبض على طرق المواصلات التجارية التى تصل بلادهم بالاجزاء الغربية من آسيا الصغرى وتقوية نفوذ أعداء روما القدامى فى تلك البلاد، حتى بدأت الدبلوماسية تلعب دورها ويقدم سفراء الفرس إلى روما، ولا سيما فى عهد أغسطس وتيبريوس ومن جاء بعهدهما من الاباطرة.

وهكذا بدت سياسة الدولتين الكبيرتين تجاه أرمينية تتذبذب وتتراوح بين محاولة السيطرة على أرمينية وطرق التجارة التى تمر بها، وبين الاعتراف بها

كدولة محايدة أو حاجزة تحول دون تصادمهما والوقوف بكل منهما عند تخوم أرمينية كأقاليم حدودية، يعتمد عليها أمن كل منهما.

وبالمقابل، لم تأمن أرمينية من التدخلات المستمرة والإغارة على أراضيها من قبل الدولتين الكبيرتين. فأراضيها يتقاذفها الانسلاخ، فتدمج طورا فى بلاد فارس، وطورا تدخل بعض أراضيها فى ممتلكات روما ضمن آسيا الصغرى. ولم تغن معاهدة رانديا المعقودة سنة ٦٤/٦٣ ق.م. عن تأويلات وتفسيرات لشروطها الغامضة من قبل روما - على عادة الرومان فى وضع معاهدات التحالف - لتجعل من أرمينية دولة مخضعة أو تابعة حينا، ودولة محايدة أو مستقلة تلعب دورها كحدود عسكرية واستراتيجية وتخوم طبيعية حينا آخر [٢٨] وقد لعب الفرس والروم البيزنطيون دورهم فى إرساء هذه الفكرةللتخوم كحدود عسكرية أو سبل حماية للطرق التجارية على غرار أرمينية فاقامتا دولا تابعة أو مستقلة اسما كإمارة الغساسنة وتدمر (بالميرا)، بمثل ما كان الفرس يقيمون دولة الحيرة هذا إلى جانب اتفاقهم حول أرمينية، بين الدولتين الكبيرتين.

ولكن الملاحظ أن أرمينية لم تنعم بالهدوء والاستقلال الفعلى إلا فترات محدودة من تاريخها فى ذلك الوقت، و بعد أن ورثت بيزنطة الدولة الرومانية فى آسيا الصغرى (٢٩) فهى لم تأمن التدخل المستمر والإغارة عليها، مما حمل سكانها على الهجرة المستمرة، بأن احتلوا هضاب آسيا الصغرى وجبال طوروس حتى وصلوا بقوافلهم إلى خليج إياس (الاسكندرونة)وأنطاكية وشمالى لبنان، مما أسمى بأرمينية الخارجية (الصغرى) التى أصبحت فيما بعد تخما أو حاجزا طبيعيا (دار عهد) بين العرب والروم بعد سقوط الدولة الفارسية فى أيدى العرب.

صدام الحضارات حول الحدود :

إذا أخذنا بعين الاعتبار أن فكرة تطويق الامبراطورية الرومانية بحدود طبيعية عسكرية - كمثال أخير - لم تكن فحسب سياسة شرقية لروما فى مواجهة البارثيين والفرس- ومن بعدهم العرب المسلمين - وإنما كانت سياسة عامة لروما فى الشرق والغرب لدمج أواصر الامبراطورية والدفاع عنها، - الأمر الذى كان ضرورة لفرض الاستقرار السياسى الذى عرف «بالسلام الرومانى» فى هذه الرقعة المترامية الأطراف التى امتدت من الاطلسى وبحر الشمال حتى أرمينية ونهر الفرات، ومن نهرى الراين وشمال الدانوب وجعل ترانسلفانيا ولاية رومانية (Docia) حتى الصحراء الإفريقية. وأن الامبراطورية الرومانية قد أحرزت من القوة الذاتية - العسكرية والتنظيمية [٣٠] ما كفل لها أن تقوم بخطة الدفاع النشط على حدودها ضد الفرس من جانب وضد مطارق الفرسان الرحل من الهون فى الشمال ما كفل لها مواصلة الاتساع والتقدم، ومد تخومها الغربية بضم النصف الجنوبى من بريطانيا وبناء سور[٣١] على نمط سور الصين لصد برابرة الشمال وكبح جماحهم، وتقوية السكان فى الناحية الامبراطورية، لاستطعنا أن نتفهم دور هذه الامبراطورية- وغيرها من الدول وامبراطوريات العصر- فى بناء الحدود والاستئثار بالتخوم، حين نشخص بابصارنا إلى العالم فيما وراء حدودها الشمالية والشرقية فى حركة السهول العظيمة التى امتدت بلا انقطاع من هولندة عبر ألمانيا وروسيا وعجت بقبائل التيوتون والسلاف حتى جبال آسيا الوسطى ومنغوليا، والامبراطورية المماثلة لها فى بلاد الصين.

وكما استمسك الرومان بخط دفاع الفرات بينهم وبين الساسانيين، تاركين أرمينيا محايدة أو مستقلة، ثبتت الحدود الشمالية الأوروبية على امتداد الراين والدانوب، بينما تركت ألمانيا التى هى الدعامة الضرورية لأمن أوروبا ورخائها تحت مطرقة الهون من الخلف، نهبا لهمجية البرابرة. ورأينا مدنا كبيرة محصنة من يورك إلى برقة، ومن لشبونة إلى أنطاكية، تعج بالمعابد والمسارح والمدرجات والأسواق، مزودة بسقايات الماء والقنوات المشيدة على قناطر مرتفعة لجر مياه الشرب، وطرقا عامة لاتزال أطلالها الرائعة باقية إلى اليوم.

وبذلك يمكن القول بأن الرومان - وإن جهلوا جغرافية البلاد النائية (كروسيا وآسيا الوسطى وشرقيها) وأحوال شعوبها من حولهم، فقد قنع أباطرتهم بحس استراتيجى أملته عليهم الضغوط الخارجية بأن يجعلوا من الفرات والراين والدانوب حدا لامبراطوريتهم، وألا يبذلوا جهدا فى سبيل صبغ ما جاوز ذلك (كألمانيا مثلا) بالصبغة الرومانية . أو إقامة وسائل اتصال بين الحضارة الرومانية وجيرانها البرابرة. وهنا غدا الانتقال الجغرافى من مجال الحضارة إلى مجال البربرية يتم فجأة لاتدريجياً. فالمدخل أو المنطقة الفاصلة Limen قد تحول إلى الحد العسكرى Limes، وأصبح خط طول ليس له عرض، وأصبحت الجماعة الحضارية تواجه عبره ما أسماه توينبى فى مختصر التاريخ «البروليتارية الخارجية» (٣٢) .وغدت المنطقة الفاصلة جبهة حربية، وحاجزا فى طريق الاشعاع الحضارى. فكلا الفريقين يقف فى وجه الآخر فى عدته الحربية. بل إنه عندما تتوقف المنازعات المتلاحقة بين الحضارة والبروليتاريا الخارجية - الشعوب البربرية- تستقر المنطقة الفاصلة لتصبح مكمنا لحرب خنادق، لا منطقة اتصال وعلاقات هادئة ، تجارية وثقافية .

وهكذا تبدو الحضارة الرومانية منكفئة على ذاتها، يفصلها عن الشعوب الأخرى خط حدود حربى غير ثابت أو محكم يمكن رسمه بدقة أو بصفة مستمرة على الخريطة ، ولكنه يتهاوى ويلتئم تحت أقدام الغزاة وضغط المناطق التى مازالت همجية وبربرية ، ولا سبيل له إلى الاتساع الحضارى، خلا ما يتصل بالفن العسكرى وبناء الموانع والحصون والقلاع مما يعتبر سلعة يتم الانتفاع بها لأغراض الحرب أو للحفاظ على كيان الدولة المتناحرة المترنحة، لا لأغراض السلم والانتشار الحضارى.

وهكذا يمكن القول بأن هذه الحدود المتأرجحة بين الرومان والشعوب المجاورة لهم فى الشمال والشمال الشرقى - بالاخص ، كانت حاجزا فى طريق الاتساع الحضارى، وظلت فى الحقيقة والواقع حدودا حربية واستراتيجية لحماية أنفسهم ، فهى لم تبلغ مبلغ الحدود أو التخوم التى تصون الاتصال التجارى والثقافى والحضارى ، أو الحدود السياسية كما نعرفها فى العصر الحديث، وإنما لم تعد أن

تكون حدود ارتطام بين الحضارة والهمجية. وقد كان «سد نمرود» الذى أقيم قبل ٣٥٠٠ سنة على نهر دجلة جنوب سامراء في العصر البابلي، وأقيمت من حوله الحصون والأبراج والأسوار (سور سميراميس) لصد هجمات الأعداء من الميديين، من هذا القبيل كذلك استخدمت التقنية الصينية فى بناء سور يمتد مئات الكيلومترات فى عهد الساسانيين كحدود طبيعية للدفاع عن مدن الواحات والمساحات الزراعية فى آسيا الوسطى (بلخ، سمرقند، بخارى، باب الأبواب) ضد غزوات الطورانيين الرحل [٣٣]. وقد بنى جستنيان الأول سور جزيرة القرم لحماية سباستبول ذات الأهمية الاستراتيجية والتجارية، ومضيق كوريش الذى يربط بحر أزوف بالبحر الأسود، كنظام للحدود الطبيعية التى تجابه همجية السلاف والهون البيض وغزواتهم للسلب والنهب، كمقدمة لتجاوز الحدود والاتجاه نحو القسطنطينية. ولقد كانت جبهة الراين والدانوب وشرق وشمال البحر الأسود حيث كانت قبائل الجرمان من البرابرة وقبائل الآفار (المجر) والإنتاى والسلاف والبلغار، يعد دون غاراتهم على بلاد الامبراطورية الرومانية التى أخذت فى الانهيار، والإمبراطورية البيزنطية التى شقوا سور عاصمتها ثم عادوا إلى شمال الدانوب (سنة ٥٤٠ - ٥٥٠م)، إلا أمثلة على هذا الارتطام بين الحضارة والهمجية حول حدود غير آمنة أو مرعية [٣٤]. ومن الصعوبة بمكان أن يرسمها خط حدود على الخارطة تحت ضغط المناطق والشعوب التى مابرحت بربرية أو همجية. ولا يفصل الانتقال الجغرافى إلى مجالها مدخل عريض أو منطقة فاصلة تفرض أمانا أو استطالة للسيطرة عليها.

فاذا كان خط الحدود أو المناطق الطبيعية الفاصلة تقع على جبهات تصادف الارتطام بحضارة أخرى من ذات طبيعتها، أو أن يكون من طبيعها السماح بمدخل للاتصال والاتساع الحضارى، وطريقا للاشعاع الفكرى والاجتماعى الإنسانى الذى يتجاوز أغراض الحرب لأغراض السلم أيضا. فقد أصبح للحضارتين حدود مشتركة ومصالح متبادلة فى غالب الأحوال، وإن كانت متعارضة أو متنافسة فى بعض الأحيان، وتؤدى بالضرورة إلى قيام المنازعات بينهما. ولكنها منازعات تعالج فى كثير من الأحوال بالطرق الدبلوماسية، كما قد تعالج فى بعض الظروف بالقتال فى

حالة فشل الحلول السياسية والدبلوماسية. وفى كل الأحوال تعود العلاقات السلمية على خط الحدود بينهما لإعتراف كل منهما بحق الآخر فى البقاء بتراثه وحضارته. ومن هذا القبيل كان الهدوء المشوب بالحذر الدائم بين الرومان والفرس (منذ عقد معاهدة سلام بينهما سنة ٥٠٥ م) فكانت الحرب الباردة التى تلتها أخرى ساخنة. ولكن تسيطر عليها فى الحالين الرغبة فى مواصلة التجارة عبر مناطق النفوذ.(٣٥)

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هذه الرسالة فى التواصل الحضارى عبر الحدود قد تحققت وتأصلت بصفة خاصة سياسيا وتقنيا فى علاقة العرب المسلمين بغيرهم من الأمم والشعوب المحيطة بهم . فقد عمل استقرار الحكم الاسلامى على استخدام شبكة واسعة من العلاقات التجارية والسياسية مع بلاد وسط آسيا، وأرمينية وبيزنطة، حيث إتسع تنقل الأشخاص وتبادل السلع وسارت السفارات الثقافية والعلمية تحمل مختلف أنواع النفوذ والتعايش، حتى أصبحت إقامة الأسوار على الحدود -و وقد أصبحت عديمة الجدوى - تضع فى مكانها مراكز منعزلة ، تسمى «رباط» أو ثغور ومن هذه الرباطات والثغور التى كانت تستخدم للدفاع والهجوم معا انتشر الإسلام بالدعوة وبالغزو والفتح (٣٦) .

وحرى بنا فى هذا الخصوص أن نشير إلى أنه لم يقع انقطاع فى تيار الحضارة فى البلاد القديمة فى الشرق (إيران، وسورية، بلاد ما بين النهرين، مصر، أرمينية، بيزنطة) بمثل ماحدث فى الغرب مع البلاد الشمالية والقبائل البربرية فى الشمال الشرقى. وإنما اتصلت وشائج الحضارة الساسانية والبيزنطية بالحضارة الإسلامية واستمرت المدن والصنائع والحرف والفنون تدلى بدلوها كما كانت فى السابق. فقد كان الشرق مستودعا لجميع القوى الحضارية المحركة للخصائص التى تميز بها الحكم العربى والنظام الإسلامى الذى حمل فى أحضانه الجنس السامى والعنصر الفارسى، والنفوذ السياسى والدينى الإسلامى، والنفوذ التقنى الصينى، وأصبحت دولة الخلافة ملتقى الطرق للحضارة والتجارة والإقتصاد وتبادل الثقافة والفكر والفنون. ولنأخذ لذلك مثلا بنظام الضرائب، حيث كان الخراج على النظام الفارسى متروكا ليطبق على سكان بلاد ما بين النهرين فى جنوبها، والطسق Taxsus

الرومانى مفروضا على البلاد التى احتلتها روما فى شمالها وبلاد الشام. فقد استفتى الخليفة هارون الرشيد الإمام أبا يوسف فى هذا، فوضع له كتاب الخراج، ونقل به قولا واقعيا للخليفة عمر بن الخطاب هو «إذا كان فى البلاد سنة أعجمية لا يغيرها السلطان» وهكذا كان النظام الإسلامى متفاعلا مع ماقبله من الحضارات، وليس ناسخا لكل ما جاءت به من أحكام ونظم.

وقد تأسست الحدود الثغرية على طول البلاد فى نفس العصر - العباسى- خلفا لنظام الأجناد الأموى، بعدأن إنهار هذا الأخير بقيام الثورة العباسية وقضاء الجيوش الخرسانية الثائرة على جيش الأجناد الشامية فى الشرق، وانتهاز الروم بقيادة قسطنطين الخامس لهذه الفرصة، فدمروا القلاع والحصون، ودمروا النظام الدفاعى العربى على عهد الأمويين، فصار من الضرورى البحث عن تنظيم جديد لحماية ذمار الإسلام وحدودها، وهو التنظيم الذى قام على إرسائه المنصور والمهدى والهادى، وأهتم به هارون الرشيد، وأنشأ له ولاية الثغور، وجعلها من نصيب ابنه القاسم، إهتماماً منه بهذا التنظيم للحدود وإبرازاً منه لأهمية أهدافه الحضارية والسياسية العامة التى تعدت أهداف الصوائف والشواتى التى تدخل أرض العدو للغزو (٣٧).

الحدود والثغور الإسلامية :

هكذا كان تتبع العلاقات على الحدود بين دار الإسلام ودار الحرب، وعلاقة الدولة الإسلامية بدار العهد - التى كانت حلقة اتصال ومنطقة تجاذب بين دار الإسلام ودار الحرب، هو شاغل الدولة الإسلامية ومدار سياستها الخارجية. ولا يعنى ذلك أن العلاقة بين الدارين (دار الإسلام ودار الحرب) كانت تقوم على الحرب، وإنما كانت تتوقف على حال دار الحرب وموقفها من دار الإسلام، لأن أساس السياسة الإسلامية - على ماهو معلوم - هو الجنوح إلى السلم ما جنح العدو إلى السلم، ومحاربة العدو إذا عاند ولم يسالم .

على أننا - بادئ ذى بدء- يجب أن نقرر أن التقسيم المتداول للمعمورة بين دار إسلام ودار حرب، فضلا عن دار العهد ، هو تقسيم فقهى ، لا أساس له فى القرآن أو السنة، واجه به الفقهاء الضرورات التى استلزمها الجهاد والدفاع عن العقيدة، وما يستلزمه ذلك من تحقيق المصالح السياسية والإقتصادية.. الخ، وما ينبنى على ذلك من تفريعات وأحكام فى حكم اختلاف الدارين، وسيادة كل منهما على إقليمه سيادة إقليمية - وهو المفهوم الذى ظهر مبكرا فى الفقه الإسلامى - والمذهب الحنفى بالأخص - فى الإعتراف بالحالة الفعلية فى تقرير سلطان وسيادة كل دولة، إسلامية أوغير إسلامية على من يقيمون على إقليمها وداخل حدودها، مسلمين أو غير مسلمين. (٣٨)

من ثم، كانت لدار الإسلام حدود معروفة، أسميت «بالثغور» البرية والبحرية، كما أسميت أحيانا بالرباط (٣٩) ولا سيما فى الغرب الإسلامى، وكانت بمثابة مراكز منعزلة متقدمة على حدود الدولة، تستخدم للدفاع والهجوم معا. ومن هذه المراكز انتشر الإسلام فى سهوب آسيا الوسطى وفى المغرب الأقصى (٤٠) وكذلك فى ثغور الأناضول وتخوم أسبانيا، وأصبحت منشآت ذات طابع مزدوج ، دينى وعسكرى ، ذلك أن الصفة الحربية كانت تمتد على إقليم الثغور كله، وأن فكرة الجهاد أو الغزو من أجل الجهاد ونشر العقيدة هى الأساس الذى يستوجب الصفة الحربية. وقد اشتهرت الثغور - ومفردها ثغر - بكونها منطقة الحصون والقلاع التى بنيت على تخوم الشام والجزيرة لصد غزوات الروم. وقد عرفت بهذا الإسم فى عهد الرشيد الذى قام على العناية بها فى طول البلاد وعرضها كما ذكرنا، وكان لكل ثغر أو حصن حصونا فرعية من حواليه تعرف «بالمسالح» أو المراقب، توضع عند نقط مختارة من الطرق، وإلى جنوبها توجد منطقة دفاعية أخرى تعرف «بالعواصم» فما كان إلى الشمال فهو من الثغور، وما كان إلى الجنوب فهو من العواصم. ويقيم جند الدفاع والغزو فى المدن والقلاع الثغرية، أو يتجاوزونها فى أرض العدو أثناء الحملات. ويضاف إليهم عنصر متحرك هو «الطالعة» وهم عبارة عن رابطة فصلية تقدم إلى الثغر من المدن الآهلة بالسكان . ومن بعدهم يأتى الجند الغازى صيفا أو

شتاءً وهو الذى يشكل الأساس فى الحملات المعروفةباسم «الصوائف» «والشواتى» وقد يكون الجند الغازى من بين المجندين الذى تقع عليهم النوبة فى الغزو . وقد تضيف الدولة إليهم حشدا آخر تجمعه عن طريق «ضرب البعوث» على بعض الأقاليم. ومعظم هذه الغزوات والحملات كانت فى الصيف ، ولا تكون فى الشتاء إلا للحاجة القصوى . (٤١)

وإلى جانب كل ذلك، كان يوجد وسط هذه العناصر التى توجهها وتديرها الدولة عنصر هام جدا هو عنصر المتطوعة الذين يتطوعون بأعمال تقدر بحسب قدرتهم وحماستهم. فمنهم من يقصد الثغر ليقيم فيه إقامة دائمة ، فيكون من حيث الإقامة كا لفرض والندب دون أن يكون له فرض الأجناد المرتب فى ديوان الجند. ومنهم من يتطوع للإقامة الفصلية . ومنهم من يتطوع لمدة شهرين أو أكثر فى مدة الغزو (٤٢) والمتطوع رجل عابد تقى - شابا صالحاً للجندية أو فارساً قادراً أو شيخا مسناً أو امرأة. مثال ذلك مايذكره الدكتور شعيرة من أن ثغراً حوصر فلبست النساء فيه العمائم، وقمن على الأسوار لإيهام العدو بكثرة عدد المدافعين عن الثغر(٤٣) ولعل هؤلاء المتطوعة من الشيوخ والعلماء ورجال الدين هم الذين أبرزوا صفة العبادة لهذه الثغور ، وجعلوا للنظام الثغرى طابعاً دينياً إلى جانب طابعه الحربى.

ويمثل سكان الثغور المواجهة للروم كل شعوب المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت : فمنهم عرب الجزيرة والشام، ومنهم فرس من خراسان، ومنهم متطوعة من المغرب والمشرق على السواء . وهم حين ينزلون الثغر يربطهم رباط واحد، هو رباط الفروسية والجهاد والتخلق بأخلاق المجاهدين والفرسان، والدفاع عن حدود الدولة الجامعة لهم. فليست جبهة الثغور جبهة خاصة بالعرب، وإن كانت من الناحية الحربية جبهة تدافع عن الشام والجزيرة والدول الحليفة كأرمينية وقبرص وبلاد ما وراء النهر - الذين اتبع المسلمون فى شأنهم سياسة التعاون والمسالمة - إلى جانب السياسة الحربية - وأشركوهم فى الدفاع عن الحدود وحمايتها (٤٤) وبفضل هذه السياسة

والتقاليد العربية التى سادت الثغور باسم الهجرة فى طلب الجهاد، وأن الرباط عمل صالح يتعين على الجميع عند الضرورة، وبفضل ما شاع فى هذه المدن الثغرية الصغيرة من تقاليد للبيئات المقفلة - مثل العبادة والفروسية والجهاد- وتعدد المساجد على طول الطريق حيث يقيم الناس حول العلماء طلبا للتعليم والرباط، غمرت الثغور البرية والبحرية، وأصبح للتقاليد الثغرية أصول يؤديها الفرسان فى تواضع وتوقير العلماء والمجاهدين فى سبيل الله. (٤٥)

وقد بدأت منطقة الدفاع الشامى المصرى الأرمنى أمام الجبهة الرومية فى طرطوس فى قليتية بأسيا الصغرى (أرمينية الخارجية) وإمتدت على طول جبال طوروس إلى ملطية ثم إلى الفرات ، حامية إقليم العواصم الذى على الحدود من غارات الأعداء. وتشبه هذه الثغور من حيث الغرض الذى انشئت من أجله لا من حيث موقعها - الثغور القديمة (٤٦) . بل فرق بين الثغور الشامية والثغورفى الجزيرة على النحو الذى تم به قديماً تقسيمها إلى ثغور عربية limes Arabicus وثغور شامية Syriacus . فمرعش أبعد ثغر فى المنطقة الشامية، وملطية أبعد مدينة فى منطقة ثغور الجزيرة .(٤٧) واعتبر ثغر قاليقلا وكمخ بابان مفتوحين إلى أرمينية، يجب أن يستوثق منهما كل من يتولى الدفاع عنها (أرمينية الخارجية).

فقد استطاعت الدولة العربية الإسلامية أن تقنع الأرمن بمزايا الحضارة الإسلامية ومدى تسامحها، فضمتهم إلى حلف العرب والمسلمين والدخول فى عهدهم (دار عهد)، وأن تخلق بينهم وبين العربى تآلفا وتجانساً حضاريا دام قروناً طويلة برغم اختلاف الدين. فقد انشأ العرب المسلمون مع الأرمن هذا التحالف مع أرمينية منذ أيام عثمان وولاية معاوية الشام، بحيث تعاون الأرمن فى الدفاع عن الحدود الشرقية للدولة الإسلامية ضد الروم، كما تعاون العرب معهم فى الدفاع عن الحدود الأرمينية الشمالية ضد الخزر ، وشجعوهم على استقلالهم المذهبى عن الروم . وبفضل هذه الصداقة الأرمينية ضمن العرب وفاء الأرمن . كما ضمنوا تفوقا استراتيجياً على الروم، قبل أن يقضى السهلاجقة على استقلال أرمينية (٤٨) وكان من سياسة العرب المسلمين فى هذا الخصوص تشجيع

الأرمن وهم أهل الذمة، علي الاستقرار بريف الحصون الثغرية، ليقوموا بأعمال التجارة ونحوها من المصالح المدنية بينهم وبين الروم، كما كان الحال من قبل بينهم وبين الفرس والروم.

وآية لهذا التسامح والعلاقات الحضارية للمسلمين مع الأرمن ومسيحيى الجبال الشمالية فى سورية، ماذكره البلاذرى فى فتوح البلدان أنه لما ابتنى عبد الملك بن مروان حصن المصيصة على يد ابنه عبد الله سنة ٨٤ - ٨٥ هجرية أتم بناءها علي أساسها القديم، وترك بالحصن الكنيسة التى كانت قائمة من قبل، وجعلها هرياً (بيتاً) تشتويه الطوالع (العنصر المتحرك أو الرابطة الفصلية التى تأتى إلى الثغر لترابط مدة الصيف الذى تقع فيه الحروب) من العرب والفرس القادمين من أنطاكية فى كل عام[٤٩]. كذلك يروى أبو الحسن البلاذرى فى شأن فتح ما حول أنطاكية وقنسرين : «وصالحوا أهل دير طابا ودير الفسيلة.على أن يضيفوا من مربهم من المسلمين» [٥٠] فكان فرسان العرب على ما هو مأثور يقضون ليلهم ويريحون خيلهم فى هذه الأديرة وهم فى طريق الغزو وقد يكون الإهتمام بالجبهة الثغرية المواجهة للروم بسبب كثرة أحداثها فى عصر الأمويين والعباسيين والجهود الجبارة التى كانت تبذلها الدولة الإسلامية للمحافظة على حدودها فى هذه الجهة . وهى حدود ليست مع ذلك إلا جزءاً من مجموعات مماثلة من الجهود التى بذلتها الدولة فى الجهات الأخرى من أواسط آسيا أو رباطات المغرب ، و إن كان الرباط اختلف عن أصله فى ثغور المشرق الأسيوى البعيد حيث غلبت الصفة الحربية على أجناس الترك، بينما كانت الصفة الدينية والتعبدية أغلب على الأجناس العربية والمستعربة من أهل المغرب.

فمن المعلوم أن بلاد المغرب الإسلامى (وكانت فى ذلك الوقت أفريقية - تونس - والمغرب وصقلية والأندلس) كانت بلادا تخضع لنفوذ البربر، ويسود فيها نمط الحياة الزراعى وأسلوب معيشة البدو الرحل، بعد أن عفت فيها آثار الماضى الحضرى الفنيقى والرومانى فقد تدهورت فيها المدن أمام زحف هؤلاء البدو فى وقت سابق على الفتح الإسلامى . ولم يتأثر فيها هذا التدهور باعادة فتح بيزنطة

لإفريقية الشمالية فى عهد الإمبراطور جوستنيان. فهذا الفتح لم يشمل سوى رقعة ضيقة وفترة وجيزة من الزمان (٥٣٣ - ٦٤٧ ميلادية) لم يستطع أن يوقف التدهور فى حياة المدن، وعملية التخلص من النفوذ الرومانى التى أخذت تزداد اتساعاً مع غزو البربر ومحاولة استعادة ماضيهم.

فلما تم للعرب والمسلمين فتح الشمال الإفريقى فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى، أصبح من المحتم ضمان سلامة البلاد وتأمينها من غزوات البربر فى الجنوب وغارات الأسطول البيزنطى من الشمال . فأصلحت الحصون والقلاع الموجودة بالداخل، كما وضعت خطط الدفاع عنها على طول الشواطئ ضد محاولات نزول الجيش الرومى فيها وهكذا امتدت الرباطات من سورية فى المشرق حتى المغرب الأقصى، وخصوصا على الساحل التونسى (٥١).

وكانت هذه الرباطات (الربط) عبارة عن مراكز للمراقبة وعمليات الإشارة التى تستخدم للدفاع والغزو فهى قلاع صغيرة للدفاع عن شواطئ افريقية المسلمة، ولحماية النشاط البحرى من حولها، حيث يقوم المرابطون - وهم مجموعة من المجاهدين الصالحين للدفاع عن ذمار الإسلام ضد الكفار . وكما تستخدم كقلاع وقواعد عسكرية ومراكز للمقاومة ، فقد قامت بدورها كمؤسسات للتربية الإسلامية ودراسات لنشر الإسلام فكانت كمثلها فى ثغور المشرق ذات وظيفة مزدوجة، دينية وعسكرية معاً وامتدت مابين الإسكندرية والرباط (مقابل مدينة سلا) مارة على شواطئ البحر بسفاقس والمنستير وسوس وتونس، وتزود بوسائل الدفاع من سور أو سياج، وشرف لرمى الحجارة والسوائل المحرقة والدبابيس المتتالية، مثلها فى ذلك مثل الثغور التى أتينا على ذكرها فى مواجهة الروم بالمشرق والتى تعلمها الصليبيون عن المسلمين أثناء الحروب الصليبية فى فلسطين(٥٢)، بل وأخذها الأسبان عن العرب وقت استعادتهم للأندلس وعنهم وعن الصليبيين انتقلت إلى أوروبا فى نهاية القرون الوسطى ومطلع العصور الحديثة كما أخذوا عنهم نظام البناء للبروج والتحصينات والحصون الذى عرفه العرب فى الثغور والرباطات والأساليب الفنية فى العمارة للدفاع التى آثر العباسيون إختيارها عن

أساليب البناء الفارسية، وظلت على حالها حتى الحروب الصليبية والدولة المملوكية في الديار الشامية على ماجاء في صبح الأعشى للقلقشندي [٥٣] . ويقول أبو الفداء في تقويم البلدان أن اسم الثغر كان يطلق على تخوم الأندلس وماوراء النهر (٥٤) الأمر الذي يؤكده لومبار عن شمال بلاد الأندلس التي كانت محصنة بسلسلة من القلاع لشن الغارات على المدن الواقعة من خلفها [٥٥] .

وغني عن البيان أن الدولة الإسلامية كانت هي التي تتبنى ولاية الثغور، ولا تتركها بحال للجهود الفردية فهي التي تتولى تحصين الحدود واختيار المواقع الاستراتيجية للقلاع والأبراج في السهول والجبال، وانشاء العواصم وبناء المساجد ومنازل الجنود والانفاق عليهم من ديوان الجند، واطعامهم واراحتهم ورواحلهم، وتسيير السكان من كافة أنحاء البلاد للقيام بأعمال التشييد والبناء والسكنى، بحيث يبرز الطابع الحكومي - العسكري والثقافي في كل نواحي الحياة في هذه المنطقة الهامة. فالثغر أو الرباط هو عنوان الدولة الإسلامية الذي يمثل حرصها على أن تبرز فيه روح الحضارة الإسلامية وقيمها في حب الجهاد والتخلق بأخلاق الفروسية وحب العلم والحضارة.

ولهذا كان تعبيد الطرق والممرات ذات أهمية قصوى للمواصلات ، فيسير الجيش إلى الثغور في طرق معبدة، لا طرق موحشة مشقة - وقد وصف ابن خرداذبه في كتاب «المسالك والممالك» وكان صاحب البريد في الجبال، في عهد الخليفة المعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢م) ، الطرق الكبيرة المؤدية من بغداد وإليها في عناية بالغة، ومرحلة بعد مرحلة . وقد وضع هذا الكتاب ليستعين به الموظفون من اتباعه في حفظ الطريق ومتابعة خطوط المواصلات ، وهم يجمعون المعلومات ويحملون المراسلات الرسمية إلى كافة دواوين الدولة المركزية [٥٦] . وكذلك كان الحال في المغرب . فشبكة المواصلات من الشرق إلى الغرب، والآتية من مصر عبر برقة وطرابلس الغرب، فتونس والمغرب الأقصى، هي التي انتشرت من حولها المدن والثغور والرباطات، وهي التي كانت هدفاً أساسياً للسيطرة عليها في كافة

النزاعات بين الأدارسة والرستميين والأغالبة فى القرن التاسع، وبين الأدارسة والفاطميين فى القرن العاشر الميلادى، وبين الفاطميين والأمويين، وبين صناهجة وزناتة فى القرن الحادى عشر، وأخيرا فى غزو بنى هلال ونضالهم فى شرق بنى مزاب والوسط، ولسيطرة المرابطين فى الغرب فى القرن الحادى عشر الميلادى(٥٧).

سياسة دار العهد (المناطق الحدودية الفاصلة) :

هذه المسألة على أهميتها لم تكن موضع تحديد دقيق فى كتب الفقه الإسلامى ولهذا حملت كثيراً من التناقض الذى لا يمكن رفعه أو تفسيره إلا على ضوء الأحداث التاريخية التى نراها ثرية وغنية فى سياسة الحدود للأمويين، ومن جاءوا بعدهم من العباسيين، وكذلك الدولة العثمانية. وتتلخص هذه السياسة بادئ ذى بدء فى أن الدولة الإسلامية لم تتبع مع بعض الخانات والملوك فى آسيا الوسطى (بلاد ماوراء النهر) وأفريقية سياسة الحرب التى اتبعتها مع الروم فى غير هوادة، والتى تفترض أن لا سبيل إلى التفاهم مع العدو فى دار الحرب، إما لتمسكه بدينه تمسكاً يقوم على العداء للإسلام، وإماالثبات دعائم حكومته ثباتاً لا سبيل إلا الحرب لتقويضها: فالمسلمون اتبعوا إلى جانب السياسة الحربية فى دار الحرب سياسة التعاون التى تحرص على موالاة هذه البلاد وصداقتها على أساس احتفاظها ببعض شخصيتها السياسية المستقلة، وإبقاء ملوكها وامرائها عليها، وإنشاء الحصون وتدعيمها بالحاميات لحمايتها، مادام فى حمايتها حماية فعلية لدار الإسلام. فكان مثل هذه البلاد والممالك مثل أرمينية الذى تقدمنا لها بالذكر، فى أن كل طرف من أطراف العهد أو الحلف يعترف بسيادة وسلطان الإسلام، على أن يظل محتفظا بأربعة أشياء هى : جيوشه وإدارته ورؤسائه وحريته الدينية. فالوضع القانونى لدار العهد هو التحالف من أجل الاستقرار والأمن لدار الاسلام من جانب وأمن المجموعة المجاورة أو المتاخمة limitrophes، التى طبق عليها مركز خاص أسمى "بدار العهد"، من جانب آخر.

وهكذا أصبح المقصود بهذا الاصطلاح "العهد" فى السياسة الاسلامية هو ارساء الأمن ونشر الأمان على ربوع وتخوم الدولة الاسلامية. وأنه أشبه ما يكون بالمفهوم الرومانى للبلاد الحليفه والصديقة foederate . ولم يكن المقصود بالتعاهد مع هذه البلاد- كمالك ما وراء النهر (جيحون) هو إخضاعها لأحكام الاسلام الدينية والسياسية، وأنها تصبح بمثابة العراق وخراسان والشام ومصر، وانما حرص الاسلام بفتحها على إحاطة نفسه بدول صديقة أو حليفة. ويسعى لهذة الغاية بالسيف والسياسة معا (٥٨) . وقد كان من مرونة السياسة العربية فى هذا السبيل ما جعلها تتحاشى جرح كرامة هذة الشعوب وأنفتها، بل أخذت تفرق بينها، ولا تسوس علاقتها معها على درجة واحدة، ولا فى وقت واحد، ولم تكن طاعة هذة الشعوب والممالك للعرب على حال واحد. فكانت توجد بلاد يقر المسلمون فيها حامياتهم ويغزون ما وراءها (٥٩)، وبلاد أخرى يكتفى العرب فيها باقرار نفوذهم ولا يغزون ما وراءها، وأنما يحرصون على طاعتها هى فحسب (٦٠) وسبب هذا التفريق - عند الدكتور شعيرة - هو أن العرب كانوا يخشون مَنْ وراء الطائفة الأولى، ولا يخشون مَنْ وراء الأخرى ولا يتوقعون منهم الغزو أو التعرض لدار اللاسلام، "وقد نجحت هذة السياسة مع الاتراك نجاحا عظيما لم يتهيأ لها مثله فى أرمينية - مثلا - وأخذت الفروق بين الحليف القوى والحليف الضعيف تزول شيئا فشيئا إلى أن أصبح الترك عنصرا هاما فى الدولة، وأصبحت بلادهم سدا منيعا فى وجه مَنْ وراءهم من القبائل التركية غير المسلمة، بل أصبحت منطقة وسطى - حكما وفقها - ينزلها الترك فيستحيلون فيها إلى رعايا مسلمين. وقد ارتسمت هذة السياسة فى أيام الأمويين، وتمت واتسعت أيام العباسيين الاوائل لغلبة الروح الاسلامية على سياستهم، وجنى الاسلام من وراء ذلك ثمارا نظن أنها إذا أخذت جملة كانت خيرا للدولة الاسلامية" (٦١).

فقد كان للعرب مع هؤلاء سياسة خاصة، ولملوك هؤلاء فى نظر العرب وضعا خاصا، يتعاملون معهم بالجيوش أحيانا، وبالسلم أحيانا أخرى وإن تأخر احتلال هذه البلاد أو ضمها إلى بلاد دار الاسلام. وهم ان استعملوا السيف فلا يكون ذلك إلا عندما تضيق بهم الحيل فى استمالة اولئك إلى جانبهم، وأن يقيموا بين جند الاسلام وجندهم أخوة حربية يتوقعون من ورائها للاسلام خيرا (٦٢).

وهكذا يمكن رؤية موقف دار الاسلام من الترك. فهى إما أن ترى فيهم نفسها على ضوء تحولهم إليها، وتراهم كاشقاء محتملين فى دار الاسلام، وإما أن ترى فيهم رؤية روما للبرابرة الغرباء وبعبارة أصح كانت ترى فيهم مركزا وسطا، يأمنون بأمان المعاهدين، فهم على حد قول أندرية مايكل Andre Miquel "غرباء دون أن يكونوا غرباء"، يسكنون فى دار الاسلام وفى خارجها، يقفون من دار الاسلام موقف البرابرة من روما تقريبا، وإن كان من الصعب الذهاب بهذه المقارنة الى النهاية.... فعند ما إجتاح القوط الإمبراطورية الرومانية اعتبروا غرباء إطلاقا قادمين من طرف العالم، أو من انحاء نائية جدا. فتدارك تاريخهم كان أمرا مستحيلا - ولو أنجدتهم الأساطير - بسبب الهامش الجغرافى والحضارى الواسع النطاق، حتى لم يعد لديهم فى النهاية إلا أن يختاروا بين الانكفاء التام إلى الضباب الشمالى، أو القبول بالانصهار فى الطرف الرومانى المهزوم. وهكذا يفقدون كل عمقهم التاريخى، وكل هويتهم السياسية، وينتهى تاريخهم فى أقصى مداه إلى التاريخ الرومانى الحقيقى لغزو القوط الأسطورى.

ولكن الترك كانوا بمثابة القوط معكوسين. فلم يكونوا مع حلول السياسة الاسلامية غرباء تماما، ولا أناسا من أطراف العالم. فهم وإن قيل عنهم برابرة، إلا أنهم جيران، أو معاهدون مضطربون، ولكنهم فى نهاية الأمر يتحولون بدارهم من منتصف الطريق إلى دار الاسلام ولا شك فى أن هذة السياسة التى افترضت دارا للعهد فى تصورها للعالم القائم بين أرباض دار الاسلام وبين غيرها من أرجاء المعمورة، عبر من يقطنون على جانبى الحدود، والتى تفترض أن هناك سبيلا للتفاهم مع الترك، خلافا لما افترضته مع الروم - عبر أرمنية - من سياسة الحرب فى غير هواده، هى التى أدت لاتحاد الترك مع عرب ما وراء النهر من مضرو ربعية واليمن ، وإن التحالف معهم على حرب غيرهم - وإن كانوا لم يهتدوا بعد إلى الايمان، ولم يفقدوا شخصيتهم وفروسيتهم وبأسهم فى القتال، ولم يكن هذا إلا مدخلا إلى اسلام الجند الترك، وتجنيدهم (وإدخالهم فى الاسلام عن طريق هذا التجنيد)، سواء كان سبب ذلك الحاجة إلى الاكثار من الجند، أم تعزيز الاسلام بدخول جند الترك فيه[٦٣].

فإذا كانت هذه هى حال الترك مع سياسة دار العهد، فقد سبقهم فى ذلك عهود المسلمين مع نصارى ويهود بنى نجران ونصارى العرب من بنى تغلب وقبرص والنوبة، فضلا عن عهودهم مع أرمنية التى قد سبقت أشارة اليها.

فقد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم راهبا نجران، فسألاه الصلح، فصالحهما وجعل لأهل نجران ذمة الله وعهده، وأن لا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا، واشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به. وتجدد هذا العهد في خلافة أبى بكر الصديق. فلما استخلف عمر بن الخطاب أصابوا الربا وكثر فخافهم على الاسلام فاجلاهم، وترك بعضهم ناحية الشام وبعضهم بناحية الكوفة. وتعاقبت معهم العهود على عهد عثمان ويزيد بن معاوية وهارون الرشيد على تفصيل فيما يؤدونه وهم بالشام والعراق من خراج على الأرض أو جزية على رؤوس على ما إتاه عمر بن عبد العزيز [٦٤]. وفى كتاب الخراج لأبى يوسف "عن عبادة بن نعمان التغلبى أنه قال لعمر بن الخطاب" " يا أمير المؤمنين إن بنى تغلب من قد علمت شركتهم، وأنهم بازاء العدو، فإن ظاهروا عليك العدو إشتدت مؤونتهم، فإن أردت أن تعطيهم شيئاً فافعل فصالحهم عمر على ألا يغمسوا أحدا من أولادهم فى النصرانية، ويضاعف عليهم الصدقة........ ونساؤهم كرجالهم فى الصدقة، فأما صبيانهم فليس عليهم شىء . وكذلك أرضهم التى كانت بأيديهم يوم صالحوا، فيؤخذ منهم ضعف ما يؤخذ من المسلم وسبيل ذلك الخراج لأنه بدل الجزية، ولا شىء عليهم فى بقية أموالهم ورقيقهم.[٦٥]

أما حال قبرص وعهدها فقد أتى على ذكره البلاذرى رواية عن الواقدى وغيره فى غزوة معاوية بن أبى سفيان الأولى بالبحر سنة ٢٨ هـ. ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها، وقد بعث إليهم أركون قبرص يطلب إليهم الصلح، وقد أذعن أهلها به فصالحهم على سبعة آلاف ومائتى دينار يؤدونها فى كل عام، وصالحهم الروم على مثل ذلك، فهم يؤدون خراجين، واشترطوا أن لا يمنعهم المسلمون أداء الصلح إلى الروم، وإشترط عليهم المسلمون أن لا يقاتلوا عنهم من ارادهم من ورائهم، وأن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم. فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا

لهم ولم ينصرهم أهل قبرص ولم ينصروا عليهم....... ولم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولى عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار، فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم. ثم لما ولى هشام بن عبد الملك ردها فجرى ذلك إلى خلافة أبى جعفر المنصور فقال: نحن أحق من أنصفهم ولم نتكثر بظلمهم فردهم إلى صلح معاوية ...... وكتب اسماعيل بن عباس " أهل قبرص أذلاء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم(٦٦).

ومن هذا القبيل أمر النوبة حين عاهد عبد الله بن أبى السرح أهلها سنة ٣١ هـ وصالحهم على البقط (٦٧) .ويروى المقريزى فى الخطط رواية عن أبى الحسن المسعودى أن "البقط ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم، وهو ثلثمائة وخمسة وستون رأسا لبيت المال لشرط الهدنة بين النوبة والمسلمين، وللأمير بمصر غير ما ذكرنا أربعون رأسا ولخليفته ..... على حسب ما جرى به الرسم فى صدر الاسلام فى بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة (٦٨) والصحيح فى هذا السياق هو قول الليث بن سعد أنه صلح وليس مجرد هدنة (٦٩)

وهكذا كما رأينا جرت بعض أحكام الفقه على نوع من الغموض فى التفسير أو التضارب فيما هو دار عهد أو صلح، وما هو ضرب من التقسيم المالى يفرض على بعض الأرضين التى صولح عليها أهلها وهى جزء من دار الاسلام فهناك ولا شك فرق بين نوع الاستيلاء على الأرض وما يفرض عليها من خراج أوفىء أو طسق أو بقط، والتى صولح عليها أصحابها وهى داخل دار الاسلام وتجرى عليها أحكام الاسلام وشعائره، وبين البلاد التى صولح عليها أهلها وحكامها بحيث بقت على ذمتها وشعائر دينها ولم تصر من دار الاسلام - وهى التى نقصد اليها فى هذا المبحث من الكلام.

ولعل المعنى الأول هو ما رمى اليه الشافعى عليه رضوان الله فى الجزء الرابع من كتاب الأم: "فاذا غزا الامام قوما فلم يظهر عليهم حتى عرضوا عليه الصلح على شىء من أرضهم أو شىء يؤدونه عن أرضهم فيما هو أكثر من الجزية أو مثل

الجزية: فان كانوا ممن تؤخذ منهم الجزية وأعطوه ذلك على أن يجرى عليهم الحكم (حكم الاسلام؟ !) فعليه أن يقبله منهم. وليس له قبوله منهم إلا على أن يجرى عليهم الحكم. وإذا قبله كتب بينه وبينهم كتاباًبالشرط بينهم واضحا يعمل به من جاء بعده . وهذه الأرض مملوكة لأهلها الذين صالحوا عليها على ما صالحوا على أن يؤدوا عنها شيئا، فهى مملوكة لهم على ذلك. وإذا صالحوهم على أن الأرض كلها للمشركين فلا بأس أن يصالحهم على ذلك، ويجعلوا عليها خراجا معلوما: إما شيء مسمى يضمنونه فى أموالهم كالجزية، وإما شيء مسمى عن كل زرع من الأرض، كذا من الحنطة أو غيرها إذا كان ذلك إذا جمع مثل الجزية أو أكثر »

وواضح أن القصد فى قول الشافعى رضى الله عنه هو مجرد الاشارة إلى نوع الاستيلاء على الأرض داخل دار الاسلام وأنواع ما يفرض عليها من مكوس أو ضرائب على الأرض، ولا يقصد بلادا يسكنها أهل الصلح أو العهد خارج دار الاسلام. وإلا فما القول فى رأيه: "فمتى صالحهم على ألا يجرى عليهم حكم الاسلام فالصلح فاسد". وفى قوله : على الامام أن يمنع (بمعنى يحمى) (٧٠) أهل العنوة (وهى دار الاسلام) والصلح لأنهم أهل جزية»

وهذا هو نفس المعنى الذى قصد إليها الامام الماوردى فى الأحكام السلطانية فى قوله عن التقسيم المالى للأراضى داخل دار الاسلام! "القسم الثالث: أن يستولى عليها صلحا، على أن تقر فى أرضيهم بخراج يؤدونه عنها، فهذا على ضربين: أحدهما أن يصالحهم على أن ملك الأرض لنا، فتصير بهذا الصلح وقفا من دار الاسلام. والضرب الثانى: أن يصالحوا على أن الأرض لهم، ويضرب عليها خراج يؤدونه عنها. وهذا الخراج فى حكم الجزية حتى أسلموا سقط عنهم، ولا تصير أرضهم (٧١) دار اسلام وتكون دار عهد، ولهم بيعها ورهنها. فاذا انتقلت إلى مسلم لم يؤخذ خراجها، ويقرون فيها ما أقاموا على الصلح. ولا تؤخذ جزية رقابهم لأنهم فى غير دار الاسلام.(٧٢)

وهذا المعنى هو ما يبسطه المستشرق الدانمركى Frede Lokkegaar فى رسالته للدكتوراه عن الضرائب الاسلامية فى العصر التقليدى. (٧٣)

من ثم كان استقراء أحداث ووثائق التاريخ الاسلامى فى تلك العصور - كما أشار إليها المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب منهم والمحدثون - هى خير شاف ومرشد حول ماهية دار العهد" بالمعنى الذى نقصده كحدود وسياج لحماية دارالإسلام من الاستلاب والعدوان على يد اعدائها. وفى هذا نتفق مع رأى المستشرق برنارد لويس: "ويعترف بعض الفقهاء بحالة وسط، وهى دار العهد Territory of Truce أو دار الصلح Dome of Eovenant بين دار الحرب ودار الاسلام، وهى عبارة عن الدول غير الاسلامية التى دخلت فى علاقات تعاقدية مع دار الاسلام، وبها تعترف بخضوعها - نوعا ما - لدار الاسلام وقبولها دفع الجزية - أحيانا، ولكن مع احتفاظها ببعض الحكم الذاتى الخاص بها، وكذلك باختيار النظر إلى الصدقة باعتبارها جزية، وقد أمكن توسيع نطاق دار العهد ليشمل العديد من الترتيبات واسعة الاختلاف والانتشار مع القوى غير الاسلامية سياسيا وعسكريا وتجاريا.[٧٤]

وهكذا - كما أوضح صديقنا الراحل الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة [٧٥] فى مؤتمر المستشرقين بباريس سنة ١٩٤٨ [٧٦] نستطيع أن نتلمس مفهوم ومضمون الشروط السياسية والعسكرية التى إنطوت عليها ثغرية دار العهد حول ضمان وسلامة حدود الدولة الاسلامية استقاء من الأمثلة التاريخية التى تلت عهود نجران وتغلب فالعهود التى عاشت مددا طويلة، والتى اتبعها الأمويون والعباسيون فى سياسة الحدود مع الممالك الحليفة فى وسط آسيا التركية والقوقاز، ومع أرمينية وفى أفريقية، وهى التى تحدد بحق ماهية هذه السياسة العهدية التى تعنى أساسا الحفاظ على أمن وسلامة الدولة الاسلامية وحدودها مع البلاد المتاخمة أو المجاورة. من ناحية كان هناك المبدأ العام بالحفاظ على الشخصية السياسية المستقلة لبلاد دار العهد. فلم يكن الوجود العربى الاسلامى فى وسط آسيا التركية يزيد على الوجود العربى فى القلاع الموجودة، أصلا، أو المنشأة خصيصا على طول طريق الغزوات، والذى يمر ببخارى وسمرقند بل كثيرا ما أبقيت ضمن هذة الحاميات جيوش محلية من أهل البلاد لمساعدة العرب فى المجهود الحربى.

وفى أرمنية سمح للجيش العربى الاسلامى أن يقف على الحدود الأرمنية -

البيزنطية اكثر من مرة لملاحقة العدوان البيزنطى ولقهر الجيوش البيزنطية، أو فى مواجهة حدود أرمنية مع القوقاز. ولأهمية ذلك عند الأمويين دفعت الدولة الاسلامية جزية سنوية لأرمينية فى مقابل ذلك، دعما لبقاء العلاقات السلمية مع أرمنية. أما فى خصوص أفريقية فقد سعى عقبة بن نافع منذ البداية إلى التعاهد مع قبائل البربر الذين تحولوا رويدا رويدا إلى الاسلام، حتى تكون منهم جيش بزعامة اللواتة وإبنى الكاهنة الجزائرية حسب رواية ابن عبد الحكم وابن خلدون فى المقدمة.

بل كان البربر يشكلون كما يقول مرسية Marcais غالبية الجيش العربى فى فتح الاندلس، مما يؤكد ويفسر الطابع المحلى الخالص للمسألة الاندلسية فى بدايتها[٧٧].

ومن ناحية أخرى، طبق مبدأ عام آخر يرمى إلى الابقاء على رؤساء وملوك هذه الدول الحليفة المعاهدة. فقد أبقى على ملوك أرمنية وبلاد آسيا الوسطى، والامراء والرؤساء المحليين الذين عرفوا "بالخانات" Ichhans فى سلطاتهم ومناصبهم موفورى العزة والكرامة. وفى أفريقية دخل العرب الفاتحون فى محادثات وتعاهدات مع أبو المهاجر زعيم القبائل حتى مال إلى مساعدتهم ضد البيزنطيين فى أفريقية، وأصبح ولده قصيلة وولدى الكاهنة هم القائمون على العهد والمساعدة للعرب بعد وفاته. وهكذا إلى أن دخل البربر فى الاسلام جيلا بعد جيل.

وفى كل ذلك ما يشهد بأن السياسة العربية الاسلامية مع البلاد المجاورة لم تكن سياسة قهرو غزو واحتلال - كما كانت سياسة الرومان والبزنطيين. وكان الاستيطان فى هذه البلاد، ومعاملة أهليها على قدم المساواة واحترام شعائرهم وسيادتهم على ممالكهم وقبائلهم هى التى ساعدت على أن تصبح هذه البلاد مواطن لهم [٧٨].

نظرية دار العهد فى الأندلس والدولة المملوكية :

وقد امتدت نظرية دار العهد الاسلامية مكانا واستطالت زمانا حتى بلغت عصر المماليك والعثمانيين وبلاد الاندلس. فمن يتصفح على سبيل المثال مجموعة الوثائق العربية الدبلوماسية فى أرشيف مملكة أراجون (ما حول برشلونة) كما أعدها المستشرقان الاسبانيان سانتوس ودى ليناريس (٧٩) يجدها غاصة بالعهود والمواثيق المعقودة بين سلطان غرناطة قبيل سقوطها والمغرب وتونس ومصر المملوكية وبين دولة أراجون، ما بين سنة ١٢٩٦م وسنة ١٣٧٧ م.

ومن هذا القبيل رسالة محمد الثانى (الأمير عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبى عبد الله بن نصر) سلطان غرناطة إلى جيم (جامقه) الثانى ملك أراجون فى ٣١ ديسمبر سنة ١٣٠١ : «بأن نكون لكم صاحباً وفياً ويكون بيننا وبينكم صلح ثابت وصحبة صادقة، يكون فيها أصحابكم أصحابنا وأعداؤكم أهل قشتالة (كاستيلا) أعداؤنا ..... وتصاحبوا كل صاحب لنا، وتعادوا كل عدو لنا من المسلمين أو من أهل قشتالة ... فعليكم أن تقفوا معنا فى تكميل الربوط (الثغور) التى بيننا وبينها ... وعلى أن تمنعوا أهل بلادكم من الدخول بالتجارة إلى أشبيلية وغيرها من بلاد أعدائنا فى البر والبحر .. » (٨٠)

وفى رسالة اسماعيل بن فرج بن نصر سلطان غرناطة إلى جيم (جامقة) الثانى ملك أراجون مايو - يونيه سنة ١٣٢٤ ، جاء «وتعلمون أن النصارى لا يعلم منهم من هو من أرض الصلح ولامن من أرض النفاق (قشتالة) ، وإنما يتميزون بالأرض . فمن أخذ فى أرض الصلح فيحكم بحكم أرض الصلح، ومن أخذ بأرض النفاق فحكمه حكم أرض النفاق ... » (٨١)

وفى رسالة الأمير عبد الله الغنى بالله أمير المسلمين محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر سلطان غرناطة بتقرير العهد مع دون بطرة ملك أراجون فى ٢٠ مايو سنة ١٣٧٧ (١٨ صفر سنة ٧٧٩هـ) جاء «وقصدكم الصلح بيننا وبين ناسنا وأهل إيالتنا وبلادنا ومراسينا

بـراً وبحراً وبينكم وبين ناسكم وإيالتكم وبلادكم ورياستكم ومراسيكم براً وبحراً لما رأيتموه فى ذلك من المصلحة الشاملة لنا ولكم وتجديد ماسلف من ذلك ... وبحسب ذلك رأينا أيها السلطان المعظم أن عقدنا معكم صلحاً على أنفسنا وناسنا وإيالتنا وأهل بلادنا ومراسينا حيث كانوا برً وبحراً كما عقده معنا رسولكم إفرنشسكو المذكور .... لمدة خمسة أعوام .... ، ومنها أن لا تقع منا ولا من ناسنا ولا أهل بلادنا إعانة عليكم لمن يعاديكم من ملك قشتالة أو غيره وكذلك لا تقع منكم ولامن ناسكم وأهل رياستكم وبلادكم لا فى فى البر والبحر إعانة لعدو، لا ملك قشتالة أوغيره .. »(٨٢)

فمن المعلوم أن الإسلام قد إمتد فترة طويلة من الزمان فى ربوع هذه البلاد حتى شمل ثلاثة أرباع شبه جزيرة إيبيريا، وأمضى مالا يقل عن قرنين من النجاح العسكرى والسياسى والحضارى عامة حتى وصل إلى الأوج فى عصر عبد الرحمن الثالث والحكم الثانى والمنصور، ثم قرن ثالث من الضعف السياسى مع غزارة الإنتاج الأدبى والفنى الرائع ، ثم قرن ثالث ساد فيه البربر الموحدون والمرابطون، وإن نشطت فيه المبادلات الفكرية والعلمية مع أوروبا المسيحية. ثم جاءت فترة الذبول والإنهيار فى قسم كبير من شبه الجزيرة فى القرن الثالث عشر الميلادى، حتى حان وقت الخاتمة الطويلة فى آخر معقل للإسلام بغرناطة وعلا الصليب قصر الحمراء، وطرد العرب المسلمون نهائياً من الأندلس سنة ١٦٠٩(٨٣)

فمن المعلوم أنه من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر كان الصمود الطويل الأجل لمملكة غرناطة مشكلة داخلية لأسبانيا ، لابد أن تنفض، فالحدود التى وصل إليها العرب فى شمال شبه جزيرة ايبيريا، والتى نشأت فى القرنين التاسع والعاشر فيها الدولة الأموية العظيمة، وشكلت العالم الحاسم فى توازن القوى فى البحر المتوسط، سرعان ما تقهقرت إلى الخلف، وامتنع الأمويون بصورة واعية عن أية هجمات فيما وراء جبال كانتابريان والبرانس، وركزوا سياستهم الخارجية على السيطرة على السواحل الأفريقية وأمرة البحار، بمعنى أنهم قصروا مهمتهم فى مواجهة العالم المسيحى فى الشمال كحرس للحدود وإقامة القلاع والثغور، كما قصروا سلطانهم على الأماكن التى استقرت يومئذ للإسلام (٨٤)

فمن ناحية، كانت الضرورة هى التى ألجأت العرب المسلمون إلى الوقوف عند حدود غير آمنة فى الشمال، لا تتجاوز مابين نهرى الدورو (الدويرة) والأبرو (أبره)، إلى أن إجتاحتها هجمات حروب الاسترداد تدريجياً فى القرن الحادى عشر. وهكذا أصبحت حدود الأندلس هى إلى الجنوب منها إلى الشمال. فالقدرة العسكرية والديموغرافية للعرب على تحويل وجودهم فى الشمال إلى فتح واستيطان مستقرين قد أصبحت غير كافية وحال طول خطوط المواصلات البرية والبحرية مابين قواعدهم فى ايبيريا وأفريقية وبين هذه القواعد، دون وضع أية خطة استراتيجية متكاملة من أجل التوسع فيما بعد، وإنما ترك ذلك للمبادرات الفردية التى تشكلت من جماعات صغيرة ومحدودة، تنقصها التعزيزات والامدادات الضرورية وذلك حتى جاءت الحركة العكسية التى تلت بواتييه، والتى أدت إلى التخلى للممالك المسيحية عن أرض جديدة تقع بين نهرى الدورو والألبو (استورياس وليون ونافار وكتالونيا)، تلك الأراضى التى لم يستطع العرب الإحتفاظ فيها بحكم مستقر [٨٥]

ومن ناحية أخرى، لعبت السياسة الخارجية للأمويين فى الأندلس دورا كبيراً فى هذا الخصوص . فصراعهم البحرى الطويل مع خصومهم الفاطميين فى مصر، وعداؤهم للدولة العباسية، قد دفعهما إلى التحالف مع بيزنطة كعدو مشترك لدولتى المشرق الكبيرتين، ومن أجل حفظ التوازن فى حوض البحر المتوسط . ولكن جميع هذه الخطط والمحاولات مالبثت أن انهارت بعد الأزمة الداخلية للخلافة فى قرطبة، وانتقال محور القوة الإسلامية فى الغرب من أسبانيا إلى أفريقية، واحتلت جيوشها الأندلس وجعلتها بمثابة دولة تابعة، وهى التى سبق أن حلمت باخضاع الساحل الإفريقى لها، وهكذا ظهرت على الأفق الخاتمة الطويلة لآخر معقل للإسلام بعد القرن الثالث عشر، فى غرناطة الأندلس التى تآمر حكامها بعضهم على بعض، وتآمر عليها مع المسيحية سلاطين المسلمين فى الشمال الإفريقى وفى مصر بعيد إنهيارها وطرد المسلمين منها.

وعلى سبيل المثال لا الحصر نأتى على ذكر رسالة يوسف بن يعقوب سلطان تلمسان إلى دون جاقمة ملك أراجون فى ٥ يوليو سنة ١٣٠٤ م بطلب أن «لا تكملون

صلحاً مع صاحب غرناطة ولا مع صاحب قشتالة إلا بعد الموافقة منا ... والمساعدة فى جميع الأمور. [٨٦] ورسالة أخرى فى هذا الخصوص بتاريخ ٢٣ يونيو سنة ١٣٠٤ م ، جاء فيها : «وعرفتم أن صلحكم مع صاحب غرناطة لا يكون إلا بموافقتنا . ونحن نعرفكم أنكم إن أردتم الصلح معه فنحن نشترط لكم عليه مايوفى به على أحسن وجه، مما يكون مصلحة للجميع، وسبباً لكل ما يثبت به التأصيل فى الخير والتفريع .. [٨٧]

وتشير الوثيقة رقم ١٥٥ من مجموعة الوثائق المشار إليها آنفا إلى رسالة من عبد الواحد بن أمير المؤمنين الواثق ملك تونس إلى الفونسو الثالث ملك أراجون فى ٢٩ يوليو سنة ١٢٧٨ أثناء تشديد الخناق على غرناطة بقبول الصلح والعهد والإتفاق فى شأن صقلية وانشاء كنيسة ونظام قنصلى لأراجون ورعاياها بتونس. جاء فى هذه الرسالة مانصه : «عهد ومهادنة واتفاق جيد ومحبة طيبة من اليوم لقدام طول مانعيش نحن الزوج» [٨٨] أما مصر المملوكية فقد لوت عنقها وأشاحت بوجهها، فصمت أذنيها وغضت عينيها عما كان يحدث بغرناطة الأندلس من ضربات موجعة يكيلها إليها إئتلاف الدول المسيحية فى أسبانيا بزعامة إيزابيلا وفرديناند . فالوثيقة الشهيرة رقم ١٥٣ من مجموعة الوثائق المشار إليها تنص على عقد الصلح الثابت والمحبة والإمتيازات الخاصة بمحاكمة رعايا أراجون باختيار منهم امام ملك من الآمراء أو الناظر بالديوان، فضلاً عن تقرير النظام القنصلى، وذلك فى اثنين وثلاثين مادة، بين السلطان المملوكى فى مصر والشام الملك الأشرف برسباى وألفونسو الخامس ملك أراجون فى ٣٠ مايو سنة ١٤٣٠م فقد كان ألفونسوا الخامس ملك أراجون قد قبل التعاهد مع اسحق ملك الحبشة على القيام بحملة صليبية مشتركة للأحباش والكتيلان ضد الدولة المملوكية، ولكن فشل هذ المؤامرة هو الذى دعاه ، تحت ضغط رعاياه الذين أصيبت مصالحهم التجارية باضرار كبيرة، إلى قبول وساطة رئيس الفرسان الاسبتارية برودس لعقد هذا الصلح مع برسباى فى ٧ رمضان سنة ٨٣٣ هـ [٨٩]

وكانت الطامة الكبرى فى عهد السلطان الغورى حين سقطت غرناطة فى عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م وانتقل فرديناند وايزابيلا إلى مهاجمة السواحل المغربية وقابل سلاطين المسلمين وامراءهم بالمغرب هذا الهجوم الجديد بتوحيد صفوفهم والتحالف فيما بينهم، ثم كاتبوا الغورى بالانضمام إلى الحلف والقيام بطرد تجار الفرنج المنتفعين بالتجارة فى دولته ، وغلق كنيسة القيامة فى وجه حجاجهم. ولكن فرديناند سارع إلى إحباط هذه المساعى وإسال سفارة إلى الغورى سنة ١٥٠١ م واستعان السفير بتغرى بردى كبير التراجمة- وكان من أصل يهودى أسبانى- فمهد الجو للمحادثات مع الغورى، وأقنعه باستقبال السفير للمرة الثانية فى يوم ٢٦ فبراير سنة ١٥٠٢م بحضور تغرى بردى وحده. وبفضل مهارة تغرى بردى فى ترجمة الحديث الذى دار بين السفير والسلطان، وتآمر تغرى بردى الذى أحاط ملوك الفرنج وكاتبهم بأحوال الدولة المملوكية، نجحت السفارة فى عقد الاتفاق بين السلطان وملوك أسبانيا، مهما تعالت الأصوات، عما يحل بالمسلمين فى الأندلس من طرد وتشريد واضطهاد [٩٠]

وهنا لابد أن نشير أن علاقات التعاهد التى سعت إليها الحبشة مع أراجون فى عهد ملكها اسحق سنة ١٤٢٧ م قد أقلقت مماليك مصر، لما فى ذلك من تجدد عوامل النزاع والقطيعة بين مصر والحبشة، على الرغم من العهود والمواثيق وعلاقات حسن الجوار ورعاية المصالح المشتركة. ولذلك عملت مصر طوال العصر الوسيط على بقاء الحبشة دار عهد وإئتلاف مع مصر، وعملت جاهدة على منع الاتصال والتقارب بين ملوك الحبشة والفرنج بينما كان الفرنج يقفون بالمرصاد لكل محاولة للإبقاء على العلاقة العهدية بين مصر والحبشة ولهذا عادت مصر إلى تطبيق المبدأ القديم الذى يقضى بتحريم ارتياد الفرنج للبحر الأحمر، وهو المبدأ الذى تقرر منذ حملتى إرناط ملك الكرك على بلاد الحجاز فى عام ٥٧٧/١١٨١ وعلى ميناء عيذاب على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر فى العام التالى [٩١] ولطالما سارت السفارات بين الحبشة ومصر لتجديد هذا العهد، ولا سيما العهد المعقود بين النجاشى عبد سنون والسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، والذى جاء ذكره فى

كتاب النجاشى داوود إلى السلطان برقوق وما حمل من تهديد بقطع مياه النيل عن مصر واضطهاد الرعايا المسلمين بالحبشة [٩٢] .

أما عن عهد مصر مع بلاد النوبة، فقد سارت به كتب المؤرخين فى عهد المماليك. فكثيرا ما تأثر جنوب مصر بهجمات بنى كنز، كهجومهم على أسوان ونهبها سنة ٧٨٥/١٣٨٥م ، مما دفع السلطان برقوق إلى تأديبهم على يد والى أسوان الجديد الأمير حسين بن قرط الترجمانى حتى عادوا إلى الإلتزام بالعهد . بل كثيرا ما لجأ حكام النوبة إلى السلطان برقوق لفض ما بينهم من منازعات حول الملك ، ومثال هذا ماحدث سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨م، حين حضر إلى مصر الملك الناصير ملك النوبة هارباً من ابن عمه ، فرحب به برقوق ، وتشفع له، وأعاده إلى بلاد وهكذا بقت النوبة دار عهد تحمى حدود مصر ونفوذها فى الداخل والخارج[٩٣].

حدود الإمبراطورية العثمانية ودار العهد فى أوروبا:

حملت الدينامكية الإسلامية غزاة الفتح من أن يكون الإسلام ظاهرة محلية وعاملاً داخليا في حياة العرب إلى قوة كونية وعقيدة عالمية، ظهر أثرها وتراثها فى العالم الغربى المطل على البحر المتوسط وفى أوربا الشرقية. وقد كان ذلك فيما عدا الدور الذى لعبته الحروب الصليبية، على أوجه ثلاثة . فقد قدر لبعض هذه البلدان أن تصبح أراضٍ إسلامية دائمة كما كان الحال فى تراقيا والبوسنة والهرسك وقوصوه (كوسوڤو) وألبانيا التى أصبحت فى شبه جزيرة البلقان جزءاً من دار الإسلام. أما بعضها الآخر فقد كان كذلك فى العصور الوسطى وفى مطلع الأزمنة الحديثة لمدد متفاوتة، ثم لم يعد كذلك. ونعنى بذلك البلاد التى اعتنقت الإسلام بصورة غير دائمة، أو ارتدت عنه إلى المسيحية، كشبه جزيرة إيبيريا (بلاد الأندلس) وصقلية وكريت، وقسماً كبيرا من أراضى البلقان والبغدان(مولدافيا الحالية) والمجر والقرم. أما الوجه الثالث فكان بالنسبة للبلدان التى تأثرت بالاسلام ولكن لم تقع تحت سيطرته، مما يشكل المنطقة الچيوبوليتكية والثقافية لأوروبا فى نهضتها الحديثة، وتضم فرنسا وشبه جزيرة إيطاليا وأوروبا الوسطى Mitteleuro-pa وإذا كانت ديناميكية الفتح فى علاقتها بأوروبا تقع فى مرحلتها الأولى فى العصور الوسطى المبكرة حين كان الإسلام فتيا فى أصوله العرقية العربية التى تخللها عنصر بربرى إفريقى، فإن المرحلة الثانية تتعلق بأوروبا الشرقية وحدها ضمن فترة من مطلع العصور الحديثة لعب فيها الأتراك العثمانيون دورالبطولة، ومثلوا آخر موجة من الفتح لدين محمد فى منطقة حوض البحر المتوسط وشماليه حتى ماحول البحر الأسود.

وقد بدأت الدولة العثمانية كولاية لمحاربى التخوم التركية الذين ألفوا ممالكهم فى آسيا الوسطى كدار عهد حتى دخلوا الإسلام، وأصبحوا جزءا لا يتجزأ من دار الإسلام، وكونوا الدولة العثمانية فى غرب آسياالصغرى، وعبروا بها بحرى إيجة ومرمرة، ونقلوا عاصمتهم من «بروسة» إلى «أدرنة» فى أوروبا سنة ١٣٦٢، ثم أخذوا فى الإنسياح فى بلاد البلغار والصرب ومقدونيا والمجر والأفلاق (رومانيا)

والبغدان (مولداڤيا) والقرم - عاملين على تطبيق سياسة دار العهد تلك فى علاقاتهم مع هذه الشعوب وبلاد أوروبا الشرقية، على حدود امبراطوريتهم خاصة.

وكانت البلقان وشماليها تسكنها شعوب وأقوام مختلطة من التيوتون والبوهيميين والبولنديين والآڤار، وبحر آخر من الصقالبة السلاف والصرب والبلغار والجرمان يموج من حولهم وكانت فى مجموعها شعوب ذات نزعة حربية، ولكن العسكرية التركية فى عهد الانكشارية استطاعت أن تداهمها وتخضعها حتى وقفت بجيوشها حول البحر الأسود وشمالى الدانوب عبر بلاد المجر، وحاصرت ڤينا على يد سليمان القانونى سنة١٥٢٩، ثم انسحبت وأعادت الكرة سنة ١٥٣٢ م، وفى محاولة أخيرة سنة ١٦٨٣م فات فيها الأوان فقد انكشفت الواجهة المهيبة للقوة العسكرية العثمانية إثر حرب طويلة فى المجر، أصبح فيها التقهقر العثمانى أمرا حاسما، وأصبح ضعف العثمانيين باعثا لما عرف فيما بعد باسم «المسألة الشرقية»[٩٤].

ومن المعلوم أن انتصارات العثمانيين توالت فى أوروبا الشرقية وشماليها، بينما كان المسلمون يقدمون التنازلات للمسيحية فى الأندلس، وينسحبون من هزيمة فى بلد إلى هزيمة فى بلد آخر حتى اختتمت المأساة (فى جمادى الأولى سنة ٨٩٨ هـ/مارس سنة ١٤٩٣) بتوقيع اتفاقية جائرة تقضى بترحيل أبى عبد الله سلطان غرناطة من الأندلس إلى المغرب [٩٥].

وأمام ذلك لم يجد آل عثمان وسيلة لتقديم النجدة لأهل الأندلس إلا بفتح أبواب بلادهم للمهاجرين من مسلمى ويهود الأندلس، وفى التوسع بالجهاد فى أوروبا الشرقية بغية إضعاف التحالف الأوروبى العام. فقد أعلن البابا الحرب الدينية إثر انتصار العثمانيين على الأفلاق واليونان وإعلانهم بلاد البلغار ولاية عثمانية سنة ١٣٩٤. وانضم إلى البابا فى ذلك الوقت دوق بوروجونيا الفرنسية وملك المجر وأمراء باڤاريا الألمانية وأمراء النمسا وفرسان القديس يوحنا الأورشليمى. ولكن السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٣م) (٩٦) استطاع أن يظفر بالنصر أمام كل هؤلاء، وأن يطيح بتحالفهم ضد الدولة الإسلامية. ومن ثم أخضع مقدونيا وبلاد اليونان كلها قبل نهاية سنة ١٣٩٣، وجعل من الصرب ولاية تابعة للسلطان.

وبذلك أمكن له تشديد الحصار على القسطنطينية، وأن يجعلها مهيئة للسقوط فى يد محمد الثانى (الفاتح) سنة ١٤٥٣.

وقد أعقب بايزيد الأول محمد الأول ثم مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١ م) الذى قيض له أن يمكن للدولة توسيع حدودها فى بلاد المورة والابيروس والصرب وألبانيا وغيرها، وأن يجرى نظام جزية الأولاد (٩٧).

وجاء بعد مراد الثانى ابنه محمد الثانى الملقب «بالفاتح» الذى لم تقف جهوده عند فتح القسطنطينية ، بل فتح أثينا وما حولها من أراض فتحا كاملا (بين سنتى ١٤٥٨ - ١٤٦٠ مـ)، وأتم اخضاع الصرب سنة ١٤٥٩ م، وبلاد البوسنة (أرض قبائل البوشناق) سنة ١٤٦٣، حيث إعتنق نفر كبير من أهل هذه البلاد الإسلام، والتحق ثلاثون ألفا من أبنائها بالجيش العثمانى، وتولوا قيادة الغزو على الحدود الشمالية لهذه البلاد. كما تم فى عهد محمد الثانى (الفاتح) سيطرة العثمانيين على سواحل البحر الأدرياتى، والإستيلاء على كل السواحل الجنوبية للبحر الأسود.

كا تم فتح شمالى هذا البحر والاستيلاء على القرم سنة ١٤٧٥ ، وجعلها حدا شماليا للدولة العثمانية ، حتى أصبح أهل القرم تابعين ومعاهدين للسلطان (٩٨)

وبهذه الفتوحات استطاع السلطان محمد الفاتح، ومن بعده ولده بايزيد الثانى (١٤٨١- ١٥١٢م)، أن يقوما بعملية اتمام الربط بين أجزاء إمبراطورية واسعة الأرجاء. فقد كانت الفتوحات العثمانية فى البلقان وشرق أوروبا ممزقة الأوصال، وتفصل بين أجزائها أقاليم لم يتم إخضاعها بصورة تامة . منذئذ تفرغ بايزيد الثانى للغزو وأكد إخضاع البوسنة والهرسك سنة ١٤٨٣، كما تمكن من السيطرة على مصبى نهر الدانوب ونهر الدينستر سنة ١٤٨٤، وجعل منهما حدودا طبيعية للدولة العثمانية فى أوروبا. ومن هناك استطاع العثمانيون أن يؤمنوا لأنفسهم الطريق البرى الممهد المؤدى إلى القرم التى سبق للسلطان محمد الفاتح إخضاعها والاستيلاء عليها بالطريق القادم من طرابزون وشرق البحر الأسود حتى شماليه سنة ١٤٧٥ .م

وفى الواقع أن أعمال بايزيد الثانى الحربية فى أوربا قد أكدت على وضع هذه الحدود الطبيعية العسكرية للدولة ، والمحافظة عليها فى مواجهة قوتين كبيرتين

ظهرتا فى ذلك الوقت ، هما المجر فى الشمال والبندقية فى المورة وعلى بحر الادرياتيك ، حتى لحقت بهما النمسا مؤيدة بالبولنديين والألمان، وأخيرا روسيا بعد أن توحدت دولتها وتوسعت رقعتها والتف نصارى البلقان ورومانيا والصرب من الأروثوذكس حولها وأصبح أملهم فى الخلاص على يدها.

وقد خلف السلطان بايزيد الثانى ابنه السلطان سليم الأول (١٥١٤ - ١٥٢٠) ولكنه اهتم فى الأكثر بفتوحاته المشرقية فى الشام ومصر والأراضى الحجازية وجزيرة العرب، وبلاد الفرس. فلما خلفه ابنه سليمان الأول (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) الملقب بسليمان القانونى (بمعنى جامع القوانين) كرس هذا جهوده للفتوحات والعلاقات فى الجانب الأوروبى من الامبراطورية ، حتى حاصر ڤينا مرتين (١٥٢٩ - ١٥٣٢م) ، وقيل عنه أن فتوحاته وصلت فى أوروبا إلى أعلى نقطة للمد الاسلامى.

وقد استهل سليمان القانونى (جامع القوانين) عهده بالاستيلاء على بلغراد عاصمة الصرب سنة ١٥٢١م ، بعد أن عزت على السلطان محمد الفاتح. وكانت بلغراد ومجاوراتها من بلاد الصرب تابعة لملك المجر، فطرد منها المجر . ثم أتبع ذلك بالاستيلاء على جزيرة رودس فى ١٥٢٢/١٢/٢٦، وأجلى عنها فرسان القديس يوحنا الذى رحلوا إلى جزيرة مالطة وأقاموا فيها نظاماً للفرسان بحماية من شرلكان [٩٩] (شارل الخامس) امبراطور دولة الهابسبورج الجرمانية المقدسة. وتعاهدوا مع شرلكان على حرب المسلمين فى البحر . وشن أعمال القرصنة على سفنهم ، وقطع سبل الاتصال بين جنوب البحر المتوسط وشماله [١٠٠] على المسلمين حتى نشأ مادعاه المؤرخ البلجيكى هنرى بيرين فى كتابه «محمد وشرلمان»، «من انحسار البحر المتوسط ليصبح فاصلا أو حدا حضاريا بين شماله وجنوبه ، منذ ظهور الاسلام المفاجئ على السواحل الشرقية والجنوبية والغربية لهذا البحر فى القرن السابع، ثم اقتحامه للبحر التيرانى (الادرياتيك) ووصوله إلى شواطئه الشمالية الفرنسية فى ناربون ولانجدوك والبروفانس، والجزر والسواحل الايطالية فى القرن الثامن، مما أدى إلى تغيير فى توازن العلاقات والصلات ، وانقطاع

للتجارة التى دعمت من قبل وحدته الاقتصادية والحضارية، السابقة عل المجابهة العسكرية الحادثة بظهور الاسلام» .(١٠١)

ولايتسع المقام هنا للحديث عن آراء بيرين ومن ولاه أو عاداه، وإنما نتابع ماكان من أمر السلطان سليمان القانونى وحملته الثانية على بلغراد بعد أن ابتنى بها جسرا على نهر الدانوب ليتابع حربه ضد فلول المجار حتى أنزل بهم هزيمة ساحقة فى صحراء موهاج (موهاكس Mohacs) وقتل ملكهم لويس الثانى فى ميدان المعركة سنة ١٥٢٦ وعندما استنجد حاكم ترانسلفانيا جان زابوليا - باعتباره صاحب الحق الشرعى فى حكم المجر - بسليمان ضد امبراطورية الهابسبورج التى جعلت من فرديناند (دوق النمسا وشقيق الامبراطور شرلكان) ملكا على المجر (بحكم ما كان بين الدولتين من أواصر المصاهرة) قام سليمان بتثبيت زابوليا على عرش المجر فى بودا باعتبارها دولة تابعة ومعاهدة للسلطان، ثم اشتط ضد النمسا فى الشمال ليحاصر فينا سنة ١٥٢٩، ولكنه عاد لاقتراب فصل الشتاء من جانب، ونتيجة لتعهد النمسا بعدم التدخل فى شئون المجر من جانب آخر. وعندما حاصر فرديناند قلعة بودا (بودين - بودابست) مرة أخرى وقد كانت دار عهد كما نرى ، وجه سليمان جيشه نحو فيينا مرة أخرى سنة ١٥٣٢ ، محتلا بعض القلاع المحيطة بها ، ومحققا النصر على جيوش الإمبراطورية الجرمانية المقدسة حتى فاءت إلى الصلح وتبادل الأسرى . فإذا ماعادت جيوش الارشيدوق فرديناند إلى الانقضاض على المجر بعد وفاة ملكها زابوليا التابع للسلطان واستنجد به المجار، وجه جيشه إليها وقارع فرديناد مرتين سنة ١٥٤١ و ١٥٤٣ ، حتى استولى على جزء كبير من دولة المجر يحيط بمدينة بودا ويشمل حوضى الساف والدراف، وأجبر فرديناند على توقيع أول معاهدة للصلح بين النمسا والباب العالى، سلمت النمسا بموجبها للعثمانيين مفاتيح مدينة جراتز ، وتعهدت النمسا أن لا تعتمد أى اتفاق مع صاحب المجر إذا لم يعتمده السلطان . وفى سنة ١٥٥٢ م احتلت جيوش سليمان إقليم نبات التمسفار على نهر التيميسورا فى الجنوب حتى أصبحت الدولة العثمانية تشرف إشرافا فعالا وكاملا على المجر وترانسلفانيا فيما بين نهر التيرا وجبال الكربات

بوصف هذه البلاد تخوما (ودارعهد) للدولة العثمانية، وكأن الزمان قد أذن باختفاء دولة المجر. فالقسم الأكبر يتبع الدولة العثمانية، وقسم أقل فى الشمال والغرب داخل دولة الهابسبورج.

وهكذا يمكن القول بأن العثمانيين على عهد سليمان القانونى قد أمنّوا دولتهم فى شرق أوروبا من الشمال ووضعوا لها حدودا وتخوما ومناطق للدفاع عن طريق سلسة من الملوك والأمراء المعاهدين لهم، تبدأ بخانية التتار فى القرم، ثم مملكتى مولدافيا (البغدان) وولاشيا أو رومانيا الحالية (الأفلاق) ثم مملكة المجر. ونستثنى من ذلك منطقةالشمال الغربى التى دخل فيها البوشناق (البوسنة والهرسك) والأرناؤوط (ألبانيا وكوسوفو) ومنطقة السنجق فى الاسلام، وأصبحوا جزءا من دار الإسلام، أى جزءا من صميم الدولة العثمانية. وفى سنة١٥٦٦ مات سليمان العظيم The Magnificent - كما أسمته أوروبا - وهو يحاصر قلعة سكدوار (تسكيد) فى بلاد المجر، بعد أن حصن حدود الدولة بالتخوم الطبيعية والدول والإمارات المعاهدة له شبه المستقلة (ترانسلفانيا والمجر فى حوض نهر الدانوب والبغدان والأفلاق وخانية القرم التترية) . وكان كسابقيه من سلاطين العثمانيين يرى أن بولندا وقوازقها بعد أن حمى منها البغدان (مولدافيا) وكذلك بلاد المسكوف (روسيا)، يجب أن تترك على حالها حاجزا وسطا بين دولة آله عثمان وبين إمبراطورية الهابسبورج فى النمسا. بل كانت الدولة العثمانية لا تحول دون مطالبتهما بالسيادة حيث لم يظهر -كما قلنا- لغارات القوازق من أى منهما على القرم أو على ترانسلفانيا والبغدان خطر ، كهذا الخطر الذى ظهر بعد ذلك بقرن من الزمان، وخاصة بعد أن أخذت قوة المسكوف فى الظهور. (١٠٢)

وهكذا وطدت سياسة سليمان وأعماله الباهرة - التى لم تكن حربا فقط - نوعا من النظام السياسى العام للدولة العثمانية، ونوعا من التوازن الدولى مع الدول الكبيرة والآخذة فى الظهور شعورا بقوميتها وسيادتها فى أوروبا، بدءا بأقدم الصلات مع فرنسا وتلتها انجلترا فى عام ١٥٨٠م، ثم هولندا سنة ١٦١٣ (والدانمرك سنة ١٧٠٦م والسويد سنة ١٧٣٧ وبروسيا سنة ١٧٦٣ وهى الدول التى

كانت تتوسط بين تركيا وخصومها فى الصلح) [١٠٣] . وقد ساعدت الصراعات الدينية بين المذاهب المسيحية، وما تلا ذلك من حرب الثلاثين عاما (١٦١٨-١٦٤٨م) وما ألحقته بأوروبا الوسطى من وهن وضعف، الدولة العثمانية فى أعقاب سليمان من أن تستمر فى نشاط الغزو والجهاد [١٠٤]، وأن تجد لنفسها متسعا فى السياسة الأوروبية، والمساهمة فى قانونها العام من خلال العدد الكبير من المهادنات والموادعات والعهود التى تقررت بينها وبين الدول الأوروبية خلال القرون الثلاثة اللاحقة.، وغنى عن البيان أن سليمان لم يك غافلا عما كان يجرى حوله فى أوروبا من محاولات للانقضاض على الدولة العثمانية الواسعة الأطراف. ولهذا عمل على الاستفادة من الصراع الدائر بين المذاهب المسيحية، ولا سيما بين الكاثوليك والبروتستانت حتى حال الأمر إلى تأخير وحدة ألمانيا ومساعدتها للبابوية والنمسا فى الحرب ضد العثمانيين واسترداد المجر، بينما نقضت فرنسا حلفها مع سليمان[١٠٥] ونكصت عن إلتماسها العون منه ضد شارلكان. وزاد على ذلك اقتراح فرنسوا الأول أن تتوحد أوروبا الغربية لتقضى على دولة الترك، وتقتسم ممتلكاتها فيما بينها باعتبارها غنائم حرب. وفى هذا يتحدث ول ديورانت عن توازن مستتر للقوى أفاد منه كل من لوثر وسليمان، فيقول : «وربما كان لوثر قد أنقذ سليمان، كما كانت اللوثرية مدينة له بفضل عظيم» [١٠٦]

فبينما كان البابا كليمنت السابع ومن بعده يحثون أمراء وملوك المسيحية على حرب صليبية لاستخلاص المجر من قبضة سليمان، كان مارتن لوثر ينصح الأمراء البروتستانت أن يلزموا أوطانهم، حيث كان العثمانيون- من وجهة نظره- زوار من لدن الله، وأن مقاومتهم هى بمثابة الخروج على إدارة الله [١٠٧] ومن ثم ، نرى زعماء اللوثريين يبتهجون ويحتفلون بهزيمة جيوش البابوية وفوز الأتراك المظفر فى معركة فوهاكس [١٠٨] .

ولاشك أن سليمان، كما كان حاذقا فى خدمة التوازن فى أوروبا كان مطلعا على مرامى السياسة الأوروبية التى لا تعرف التسامح ولا وخزا لضمير أو العرف أو الأخلاق، وعارفا بأوجه نفاقها كما أرسى دعائمها معاصره ميكيافيلى (١٤٦٩ -

١٥٢٧). ولعله كان فى ذلك أقرب في الفكر السياسى إلى معاصره الآخر جان بودان - ابن الأندلسية الهارب من جحيم التفتيش - (١٥٣٠ - ١٥٩٣) . فقد تأثر بودان بمآسى الحروب الأهلية الدينية فى أوروبا، ودعا إلى التسامح والسلام[١٠٩] .فكان فاتحة لعصر التنوير. كما دعا إلى سيادة الملوك وسياسة بحق إلهى ودين بلا أسرار، على وجه كان فيه قريبا من نظرية العصبية عند ابن خلدون السابق عليه بما لايزيد عن قرن ونصف من الزمان (١٣٦٢ -١٤٠٧).

قرن من الزمان أو يزيد بدت فيه أوروبا قد اكتملت، وتميزت شعوبها بصفات معينة معروفة، لكل منها مجموعة تخصه من الأوصاف. وبدت صفات كل شعب فيما يرون هى السبب فى تمسكه برقعة من الإقليم، وحبه للاستقرار، أو حبه للظعن والتوسع والانتقال، كما بدت له ضرورة قيام حدود لهذا الإقليم - متى يتسع ومتى ينقطع- بجباله الوعرة، والفواصل والأنهار والطرق والدروب.

فالاستقرار كان من دواعى الفكر الكلاسيكى الذى يحب الثبات ويتجنب كل تغيير من شأنه أن يخل بالتوازن القائم. ولكن الحدثين التاريخين : حركة النهضة وحركة الاصلاح الدينى حركتا المشاعر والأفكار، حتى جاء للفكر والنقد وحب المشاهدة والاسفار، سافر فيه بطرس الأكبر قيصر الروسيا إلى أوروبا سنة ١٦٩٧، سنة ١٧١٦، وماتت فيه كريستينيا ملكة السويد بروما سنة ١٦٨٩، وسئم فيه الأوروبيون رؤية الرجل العثمانى الحليق الشعر المرسل اللحية، وهم يتخيلونه جاسوساً للسلطان الأعظم[١١٠].

وهكذا إذا أردنا أن نتوقف عند هذا الزمان من عصر سليمان العظيم فى القرن السادس عشر الذى بزغت فيه بذور الشعور بالهوية والوطنية لدى شعوب شرق ووسط أوروبا بينما ترتاع للتقدم السريع الذى أحرزه العثمانيون فى بلاد المسيحية، نهضت البابوية للقيام على تغذيتهم بالروح الصليبية ضد الإسلام، متمثلا فى الدولة العثمانية. بل عملت على تكوين الأحلاف بينهم فى شبه ثورة مضادة مشمولة بالتعصب الدينى والعنصرى لتؤكد بينهم الهوية والشعور بالذات ضد العثمانيين. فالنمسا - التى ألحّ ملكها فرديناند بطلب الصلح وتقديم التنازلات، ومنها تقديم

مفاتيح مدينة جراتز grats لسليمان، والإعتراف بحكمه للمجر ومولدافيا (البغدان)، ودفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دوكات، وتسعين ألفا أخرى كمتأخرات (صلح براج سنة ١٥٦٢) [١١١]، ما لبثت فى أعقاب عصر سليمان،وفى عهد السلاطين الصغار، تقوم بالتحالف تحت راية البابوية لتغزو المجر سنة ١٦٨٨[١١٢] بينما تهاجم البندقية بلاد اليونان، وبولندا تغزو البغدان.وروسيا التى ظهرت إلى جانب النمسا كعدو جديد للدولة العثمانية، والتى وسعت من رقعتها الجغرافية إلى حد كبير، وعقد عليها نصارى رومانيا والصرب وبلغاريا من الأرثوذكس آمالهم فى الخلاص من المسلمين الأتراك، تهاجم القرم من حين إلى حين وتتوغل فى القوقاز وبلغاريا [١١٣] ولكن مامن أحد استطاع أن يقرب القسطنطينية أو يهدد كيان الباب العالى [١١٤] فى الآستانة.

أما فرنسا التى حالفت سليمان القانونى فى صراعها ضد شارلكان(على عهد فرنسوا الأولى) مالبثت أن شكلت أحد أطراف «العصبة المقدسة» مع البندقية والبابوية وإمبراطورية النمسا، وبلغ من أمرها- والنضال ضد النمسا على أشده بحصار فينا للمرة الثالثة ١٦٨٣ - أن ساندت النمسا، حتى انتهى الأمر عام ١٦٨٨ بضياع المجر وغزو الجيوش النمسوية شبه جزيرة البلقان، والإعتراف بسلطان البندقية على شبه جزيرة المورة، والتنازل عن حقوق العثمانيين فى ترانسلفانيا، فى صلح كارلوفتس سنة ١٦٩٩.

أفول نجم آل عثمان:

والذى يهدينا فى هذا المقام أن أمد الصراع العسكرى الطويل بين العثمانيين وبين المسيحية قد آذن ببروز الشعور الوطنى ، ودفاع كل شعب من هذه الشعوب عن محاضنها فى أوطانها الخاصة التى أصبحت تتكون فى وحدات جغرافية وسياسية لها خصوصياتها، ولدت لديها الارتقاء بوعيها القومى بصورة مختلفة عن كافة الاشكال العفوية والقبلية السابقة، والمدمرة للمجتمع والحياة والوعى بالذات. فقد كونت هذه الشعوب فى محاضنها تلك خصوصياتها، من وحدات إدارية وجيوش

ودول وحكومات وأصبحت كل دولة وحكومة أو سلطة تجاهد لتوسيع رقعتها، لا من أجل الحماس الدينى فحسب، ولكن من أجل اقتصادها وزيادة مواردها ودخولها من جهة، ومن أجل ايجاد ارض حاجزة حامية لأراضيهاوعاصمتها من جهة أخرى فالسلطة أصبحت تتغيا حدودا وتخوما حتى تسيطر وتنظم وتراقب وتردع وتتسع وتنبئ بوجودها، ويصبح وجود الحد ترجمة لغاية وارادة. ومن ثم أصبحت الحدود الطبيعية للدفاع ، وبناء قلعة منيعة للهجوم فيما أسمى حينئذ بالثغور Thogores فى بلاد أوروبا الشرقية (نقلا عن الاسم العربى) أمرا حثيثا لابد منه للشعور بالاطمئنان والأمن بأن الدولة كائن حى يصنع حدوداً ليعبر عن التماسك والوجود.

والأمر هنا ليس قاصرا على الدول الأوروبية وشعوب ألمانيا والنمسا والمجر وبولندا وروسيا القيصرية، ومن تابعها من صرب وبلغار و أفلاق ولكن الأمر يعنى بالأخص الدولة العثمانية التى صاغت لنفسها كدولة إسلامية داخل أوروبا الوسطى والشرقية لغة بين الحرب والسلام (دار العهد) ، ووضعت حدودها على أساس هذا المعيار الواعى للعقل السياسى فاذا كانت دار الحرب لا تخاطب إلا بلغة السيف والمدفع، ولا سياسة معها ، فهناك دار الاسلام حيث يفترض أن تسودها وتعلو بها شعائر الاسلام وبين هذين الحدين الاقصيين اللذين ينحيان لغة السياسة قامت لغة للسياسة الشرعية لا تصدر عن تقليد، ولا تتجسد فى أشكال أو صيغ وعبارات، وإنما هى مساحة بين بين للتسامح والتفاهم والتفاوض، كى تتعرف كل هوية إلى الهوية الأخرى وتعترف بها، وتتعايش معها دون أن يصل الإختلاف إلى لغة الحرب واستبداد كل طرف بالآخر.

ومن قبيل دار الإسلام فى أوروبا كان جميع أرجاء البلقان وجزء من المجر وألبانيا وكوسوفو والبوسنة والهرسك على وجه التخصيص ، فقد دخل الناس فى دين الاسلام أفواجا لما وجدوه من تسامح [١١٥]، حررهم من الظلم الذى كانوا يعانونه على أيدى حكام الإقطاع المستبدين. ويكفى هنا أن نشير أنه بينما كان الأوروبيون يمرون بما أسموه عصور الإقطاع المظلمة، كان العثمانيون ومن تبعهم من شعوب أوروبا الشرقية يعيشون ما أسموه «العصور الذهبية للإسلام» كما يمكن

القول أن مجموع هذه البلاد آنفة الذكر قد بقيت تابعة للعثمانيين حتى أواخر القرن التاسع عشر، حين خسر العثمانيون الحرب أمام روسيا المدعومة من عموم أوروبا سنة ١٨٧٦ - ١٨٧٨، وقيام مؤتمر برلين برئاسة بسمارك سنة ١٨٧٨. وظل أهلوها يتمتعون بقدر كبير من الحرية الدينية، ويسمح لهم بتطبيق شرائعهم فيما بينهم، ويقومون بأعمال الزراعة ومعظم أعمال التجارة، وتخصص لهم أماكن الراحة على الطرق التى كانت فى العصور القديمة والوسطى إلى آسيا وأفريقيا، ويشكل من تحول منهم إلى الإسلام غالبية الهيئة الإدارية- من وزراء وحكام وسفراء وقادة للجيوش. فى الحكومة المركزية العثمانية حتى بلغت إدارة الدولة فى عهد سليمان القانونى أقدر ما وجد من نوعها فى القرن السادس عشر [١١٦] وكان القانون التركى صارما وحازما فى الحروب، يبقى على حياة النساء والاطفال والشيوخ ويحرمون سلب المدن وايذاء سكانها المسالمين. وبينما كان العثمانيون يرخصون للمسيحيين فى أوطانهم، ولليهود الفارين من محاكم التفتيش فى أسبانيا، فى ممارسة دياناتهم فى حرية تامة، كان قادة المسيحية يغالون فى الأخذ بمبدأ التطهير العرقى والدينى، زاعمين أن الانسجام الدينى أمر ضرورى للقوة الوطنية[١١٧] - تماماً كما يفعلون .فى البوسنة والهرسك .

ولاشك أن يكون المثال الأثيرلدينا فى صدد البحث عن حدود دار الإسلام فى أوروبا هو «البوسنة - الهرسك» فقد اجتازها السلطان محمد الفاتح فى إخضاعه للصرب سنة ١٤٥٩م، ثم عاد وأخضعها إخضاعا تاما سنة ١٤٦٢م. وفى سنة ١٤٦٤م هزم بها ملك المجر الذى حاول استردادها من العثمانيين، وربط السلطان بينها وبين بقية البلاد المفتوحة فى البلقان. وفى سنة ١٤٨٣ قام ابنه السلطان بايزيد الثانى باخضاع الهرسك.

وقد بدأ أبناء البوسنة فى دخول دين الاسلام أفواجا منذ سنة ١٤٦٤م، والتحق منهم بالجيش العثمانى ثلاثون ألفا، قاموا بمساعدة السلطان فى حربه مع البنادقة، ولاسيما حين أغار والى البوشناق (البوسنة) على فريول Frioul بعد اجتياح كرواتيا وسلوفينيا، ووصلت طليعة الجيش البوسنوى إلى مدينة فيشنسا Vicenza

فى الشمال الايطالى إلى الغرب من مدينة تريستا. كما قادت البوسنة- الهرسك القوات البرية برئاسة هرسك أوغلى أحمد باشا لمساعدة القوات البحرية العثمانية فى الادرياتيك حتى أسلمت البندقية قياد الحرب، ووقعت معاهدة صلح مع الباب العالى، بعد أن ولت الجيوش والاساطيل الاوروبية المساعدة لها فى هذه الحرب (البابا وملك فرنسا وأسبانيا) الادبار سنة ١٥٠٣م.

وظلت البوسنة على عهدها دار إسلام، وقاعدة من قواعد الفتح المتقدمة على الجبهة الاوروبية مما ساعد العثمانيين على حصار ڤينا سنة ١٥٢٩، وخضوع المجر والصرب للسلطان العثمانى - على ماذكرنا- حتى سنة ١٦٧٩م عندما استولت النمسا بقيادة الدوق يوچين دى ساڤو على سرايبڤو (بوسنة سراى) وحرقها ونهب مخطوطات مكتبتها الوطنية، وانتهكت كل الحرمات فى مدن البوسنة، حتى استطاع حسين باش كوبريللى التصدى لقوات دى ساڤو ودحرها إلى ماوراء نهر الساڤ وتحرير البوسنة [١١٨]، وحتى قرن آخر من الزمان ظلت البوسنة - الهرسك بحق حدا آمنا لدار الاسلام يرد عاديات الجيوش.النمسوية عليها (وعلى بلغراد وكوسوڤو وتمشوارو إقليم نبات فى المجر) وتخمد الانتفاضات والفتن التى خطط لها وأشعلها الرهبان الارثوذكس بتحريض من كاترين الثانية [١١٩] (١٧٦٢-١٧٩٦) التى تابعت ووزير خارجيتها الشهير الكونت بانين Panine سياسة تترسم خطى بطرس الأكبر [١٢٠] (١٦٨٩ - ١٧٢٥) ووصيته فى زرع بذور الفتنة واثارة الطوائف الدينية وتقديم الأموال والرشوة وكافة أنواع الحيل والتزييف للقضاء على نفوذ المسلمين، وإشعار المسيحيين الأرثوذكس فى القوقاز وشرق أوروبا بأنهم لاراحة لهم أو إطمئنان إلا بوصاية روسيا الأرثوذكسية . وساد إثر ذلك قرن من الحروب المتوالية بين أوروبا - وروسيا خاصة- وبين الدولة العثمانية، وقفت فيه هذه الأخيرة عاجزة عن مقاومة أوروبا. وضمن هذا الاطار قررت الخلافة تطبيق عدد من الاصلاحات الادارية ووضع حد لتجاوزات الانكشارية، والقضاء على القلاقل التى اثارها أعداء الاصلاح فى اسطنبول عاصمة الخلافة ذاتها، وفى البوسنة والهرسك أيضا حيث ساهم الارثوذكس الصرب والكروات الكاثوليك بنصيب فيها. وساعد تمرد محمد على باشا

فى مصر وحروبه ضد الدولة العثمانية، ومحاولة ابنه ابراهيم باشا الاستيلاء على الأناضول على إضعاف الدولة العثمانية، وأدى إلى انتصارات ميدانية وسياسية لروسيا فى بولندا ورومانيا والبغدان، كما أعطى الفرصة لثورة اليونان وحصولها على الاستقلال الادارى بعد هزيمة معركة نافرين البحرية سنة ١٨٢٧، وغزو فرنسا للجزائر بدءاً من سنة ١٨٣٠م. وتعدى ذلك إلى البوسنة الهرسك، فطالب نبلاء هذه الولاية- وإن ظلو على عهدهم جزءا من دار الإسلام- بالاستقلال الادارى أيضا، لاعتراضهم على الاصلاحات. برئاسة على رضوان بيكوفتش باشا الهرسك اعتبارا من سنة ١٨٣٣ ووجد الصرب والكروات فى هذا الإضطراب الذى ساد الدولة العثمانية فى أرجاء أوروبا- بدءا من اسطنبول ذاتها حتى البوسنة - الهرسك- مناخا ملائما للعصيان والتمرد الذى وصل إلى سرايبيڤو وكراجينا، حتى أمكن للسردار عمر باشا أسر على باشا رضوان بيكوفتش وإقرار الأمن والنظام، وإعادة مركز الوالى من ترافينك إلى سرايبيڤو سنة ١٨٥١.

ولم يسر هذا الأمر روسيا التى ساعدت على دعم التمرد وإضعاف السيطرة العثمانية، فعبرت قواتها نهر الدانوب وبدأت حربا جديدة استطاع العثمانيون خلالها تطهير نهر الدانوب من الروس بقيادة عمر باشا البوسنوى المسلم (والنمسوى الكرواتى الأصل) - وهى الحرب التى بدأت سنة ١٨٥٣ وانتهت بحرب القرم سنة ١٨٥٥ التى هزم فيها الروس أمام العثمانيين وحلفائهم من الانجليز والفرنسيين. فقد تغلبت الأطماع والمصالح الاستعمارية لدى هؤلاء الأخيرين، وخوفهم من تأثير وانتشار النفوذ الروسى لدى الارثوذكس من رعايا الدولة العثمانية على مصالحهما وطرق المواصلات والتجارة العالمية. وقبل الروس إثر الهزيمة حضور مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ الذى أزال كل أثر للخطر الروسى على منطقة نهر الدانوب، وجعل منه نهراً دوليا يخضع لإدارة دولية عليا تنظمها المواد ١٥ -٢٠ من معاهدة باريس ١٨٥٦. ومنذئذ قيل بأن الدولة العثمانية قد أصبحت عضوا فى الاسرة الأوروبية تلتزم بالقانون الدولى الأوروبى كما تخلت روسيا عن ادعاءاتها فى حماية الارثوذكس (١٢١).

ولكن على الرغم من النصر الذى حققه العثمانيون فى حرب القرم وسلامة أراضيها فى صلح باريس سنة ١٨٥٦، مالبث المارد التركى أن أدركته الشيخوخة، ودخل المرحلة الأخيرة من الإنهيار خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وقد بدأ الانهيار يتسلل إليه منذ أمد طويل خلال القرنين السابقين بسبب اضطراب الادارة وفسادها، وتضخم الجيش وانحطاط نوعية الجندى العثمانى، واستيلاء الحكام الاقطاعيين فى كل ناحية على السلطة مقابل أداء مال معين. ولم يعد أحد يرعى القواعد والتنظيمات التى وضعها سليمان القانونى. وبينما كانت الصناعة والتجارة الاوروبية ونظريات الاقتصاد الحر والافكار الفلسفية على اختلافها تأخذ بيد أوروبا نحو النهوض خلال القرون الثلاثة الأخيرة (١٧ ، ١٨ ، ١٩) تدهورت التجارة والصناعة والفكر لدى العثمانيين عند أشكالها وأحوالها السابقة وأصبحت الدولة العثمانية على الرغم من ادخال التنظيمات الجديدة. عاجزة عن مواجهة اوروبا بدولها القومية الناهضة القوية، وقيام الجماعة الاوروبية بتوسيع خططها ونشاطاتها لاستيعاب بلاد شرق أوروبا، وظهور النزاعات والتوترات العرقية والمذهبية فى هذه البلاد التى كانت تحكمها الدولة العثمانية . وبان للعيان أن السياسة الاوروبية ترفض تقوية علاقاتها مع المناطق والاقاليم المسلمة، كما ترفض إنضمامها كوحدات دولية مستقلة ضمن مشروعها القائم على أساس تعزيز الهوية الخالصة والثقافةالمسيحية للأسرة الأوروبية ككل.

زد على ذلك أن هذه المشاعر والقناعات قد أدت إلى مباركة الدول الأوروبية لما تقترفه العصابات والانتفاضات الارثوذكسية والكاثوليكية من جرائم ضد المسلمين، واقتطاع أقاليمهم وأراضيهم وطردهم منها، مما عبر عن رفض أوروبا القاطع لأية هوية اسلامية فى أراضيها وعلى سبيل المثال نرى رومانيا قد انشئت كدولة سنة ١٨٥٩ بتشجيع من فرنسا والنمسا، بعد أن كان آل عثمان قد استعادوها فى صلح باريس سنة ١٨٥٦. ونرى الدعم الروسى والنمسوى قد أدى إلى انتصار المتمردين فى الجبل الأسود وإقامة دولة واسعة الرقعة [١٢٢] (بما ضمت من أودية خصبة، لها ساحلها الخاص على بحر الأدرياتيك على حساب مسلمى الهرسك) سنة ١٨٦٠.

وانسحب الاتراك من الصرب سنة ١٨٦٢ بتدخل من فرنسا والنمسا، حتى استقلت صربيا استقلالا تاما فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨.

فقد جاءت الطامة الكبرى عندما خسر العثمانيون الحرب أمام روسيا فى الروملل الشرقية (بلغاريا) سنة ١٨٧٧، وسارت فيالق كاترين الثانية تحمل الأعلام والرايات وتقيم أقواس النصر التى كتب عليها «طريق القسطنطينية» وذعرت فرنسا وانجلترا للتوغل الروسى فى أوروبا الشرقية والوصول إلى منطقة المضايق، كما خشى بسمارك من أن يصل الروس إلى البحر المتوسط وهو الذى كان يخطط لسياسة آلمانية فى الشرق Drang nach dsten فدعا إلى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨، وهو المؤتمر الذى تمزقت فيه عرى الدولة العثمانية فى أوروبا ، ورحلت إثره جيوش العثمانيين نحو الشرق تاركتحدودها القديمة من خلفها لتقوم فيها دول مستقلة تكوّن لنفسها حدودا قومية جديدة طبقا لما استقرت عليه معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م فروسيا التى منحت أجزاء من أرمينية كى يصبح ثغر باطوم تابعا لها، منحت أجزاء من بسارابيا مقابل اعترافها بوحدة رومانيا واستقلالها. واستقلت رسميا صربيا بعد أن ألحق بها أربعة أجزاء إسلامية من البوسنة وألبانيا، كما استقل الجبل الأسود بعد أن اتصل ببحر الادرياتيك على حساب البوسنة- الهرسك وأجزاء أخرى من ألبانيا. أما بلغاريا فقد بقت إلى حين (معاهدة بوخارست ١٩١٢) تدفع الجزية للعثمانيين باصرار من جانب انجلترا رعاية لخاطر الباب العالى وكوفئت انجلترا فى هذا المؤتمر بالسماح لها باحتلال قبرص، والسماح لفرنسا باحتلال تونس (الأمر الذى تم سنة ١٨٨١) ، كما أقرت ايطاليا على غزوها لطرابلس الغرب . أما النمسا فقد كان لها القدح المعلى، إذ أصبحت دولة الاحتلال والادارة فى «البوسنة - الهرسك»، وعزفت النمسا عن منطقة «سنجق نوفى بازار» التى تصل بين الصرب والجبل الأسود، فاعطيت مؤقتا للدولة العثمانية، مع حق النمسا فى إقامة ثلاث قواعد عسكرية وفى استخدام الطرق الحربية والتجارية «من أجل الحفاظ على الأحوال السياسية الجديدة وحرية أمن المواصلات» (المادة ٢٥ من معاهدة برلين سنة ١٨٧٨). وقد رغب فى ذلك لعدم ضم السنجق إلى البوسنة-

الهرسك حتى لا يكون طريقا إلى اتصال مسلمى البوسنة بغيرهم من مسلمى البلقان مثل كوسوڤو وألبانيا ومقدونيا وغيرها من الأماكن الآهلة بالمسلمين فى مقدونيا وبلاد اليونان ، كما قيل إن ذلك كان بهدف منع قيام دولة صربية كبرى من صربيا والجبل الأسود(١٢٣)

فقد هدفت معاهدة برلين سنة ١٨٧٨ تنظيم عملية تبادل لمواقع السيطرة فى النظام العالمى الذى أفرزته الحروب لإخراج العثمانيين ومن والاهم من المسلمين من الجماعة الأوروبية.

فلم يكن خروج العثمانيين من البوسنة والهرسك خروجا اعتباطيا، كما لم يكن دخول الأمبراطورية النمسوية - المجرية كذلك . وقد أدرك هذا سكانها المسلمين الذين ثاروا فى وجه المحتلين أول ماثاروا فى بانيالوكا. فقد بدأت منذ عام ١٨٧٨ حروب جديدة للتصفية أوضحت مايتفق عليه فى المؤتمر من الحقوق المدنية والسياسية للأقليات، وعدم التميز فى الإعتقادات الدينية، وحقوق الأجانب ... إلخ كان شيئا ، وأن ما تنفذه جيوش المحتلين الأوروبية فى ميادين الصراع ضد العسكر المغلوبة والمدنيين العزل، كان شيئا آخر ويكفى هنا أن نشير إلى أن سلطة الاحتلال (التى ضمت البوسنة - الهرسك) بعد ذلك إلى الأمبراطورية النمسوية سنة ١٩٠٨ فى عهد الامبراطور (فرنسوا جوزيف) عملت على اضعاف الهوية الاسلامية لشعب لا يعدون أنفسهم سلافا ولكن مسلمين (١٢٤).

فقد دأبت قوات الاحتلال النمسوى، والعصابات الصربية والكرواتية المدعومة من قبل النمسويين والمجريين، على حروب التصفية عن طريق القتل والتهجير والاغتصاب وسلخ أجزاء من أراضى البوسنة - الهرسك وضمها إلي جيرانها فى كرواتيا وصربيا والجبل الأسود. كأن سلخت سواحل الهرسك الجنوبية الغربية الواقعة على ساحل البحر الادرياتى وألحقتها بالوحدة الادارية فى سبليت الكرواتية، تماما مثلما فعلت بسلخ إقليم السنجق الذى ضم فيما بعد لصربيا، وما فعلته حين ضمت جزءا آخر من أراضى الهرسك الشرقية إلى الجبل الأسود. ثم جعلت له منفذا على البحر.

وهكذا ظهرت البوسنة - الهرسك فى التخطيط النمسوى إقليما محصورا وأرضا حاجزة أو حامية للسور الأمامى للكاثوليك (كما كانوا يسمون كرواتيا) ضد عدوان الصرب.

وبهذا المنطق الجيوبوليتيكى رعت النمسا مصالح أبناء دينها الكروات، فهى تعطى ساحل البوسنة على البحر الإدرياتى إلى كرواتيا، وهى تجعل منها حدا طبيعيا، أو أن شئت فقل دويلة حاجزة Buffer state تحول دون تصادم الصرب الارثوذكس مع الكروات الكاثوليك، ولا تلج إلى البحر زيادة فى أضعافها كدويلة للمسلمين. فمن مصلحة كرواتيا الإستراتيجية ألا يكون بينها وبين الصرب حدود مشتركة وأن تكون البوسنة دولة أو منطقة عازلة بينهما ولعل ذلك هو بعض ماعناه توينبى فى مختصر التاريخ حيث يقول: «كان البوشناق (البوسنويون) هم آخر من بقى من برابرة القارة الأوروبية الذين كان عليهم فيما مضى أن يتحملوا المحنة غير العادية - والتى كانت مؤلمة ألما غير عادى - والمتعلقة بالوقوع بين نارى حضارتين معتديتين هما : الغربية والارثوذكسية. ولقد نبذ البوشناق إشعاع الحضارة المسيحية الارثوذكسية التى كانت أول ما تلقوه.... وإعتبر بقية الناس ذلك هرطقة جرّت على البوشناق معاداة كلا الحضارتين المسيحيتين، الأمر الذى جعلهم يرحبون بالعثمانيين ... واستحالوا إلى مسلمين..... ووجدت المجموعتان المعارضتان من اليوغسلاف مهنة واحدة فى شن الغارات على الامبراطورية العثمانية من جانب، وعلى ملكية الهابسبورج من جانب آخر. فكان أن نشأت على نفس الارض الخصبة من الحد العسكرى مدرستان لشعر البطولة، مستقل أحدهما عن الآخر ...... ودون أن تؤثر إحداهما فى الأخرى على مايظهر لنا[١٢٥]

آما المثال الأثير لدينا فى صور دار العهد على حدود الدولة العثمانية فى أوروبا فهو البغدان وهو الاسم الذى اطلقه العثمانيون على «مولدافيا» الحالية نسبة إلى ملكها أو أميرها بغدان الأول (دراكوش) سنة ١٣٥٢ م. وشن عليها العثمانيون أول غارة سنة ١٤٢٠، ثم أغار عليها مراد الثانى - بالاتفاق مع تابعه محمد خان

القبيلة الذهبية فى القرم للقضاء على الولاج الكفار الذين يعيشون فيها بين التخوم الشرقية لجبال الكربات وبين ضفاف نهر الدنيستر (الدنيبر) . وأتم فتح البغدان وأحرق قصبتها ابنه محمد الثانى (الفاتح) سنة ١٤٨٢م. وتابع هذا الغزو والاخضاع سنة ١٤٩٢ بايزيد الثانى وتابعه خان القرم حتى اعترف أمير البغدان بالسيادة العثمانية (بعد أن كان قد جدد تبعيته لملك بولندة) وبعث بالجزية وبابنه إلى الباب العالى . ومن ذلك الوقت أضحت البغدان تمثل موقعاً حدودياً ذا أهمية كبيرة بين الدولة العثمانية وبولندا وروسيا. وغدت تجارة البغدان من الحبوب واللحم والزبد والشمع فى ظل نظام الاحتكار العثمانى، معتمدة على سوق اسطنبول [١٢٦].

ومن ثم أصبح العثمانيون يحكمون قبضتهم على هذه البلاد دون مشاكل ، وتأكد ذلك فى معاهدة عقدت سنة ١٥١١ على عهد بايزيد الثانى (١٤٨٢-١٥١٢)[١٢٧].

وقد أعاد سليمان القانونى محاربة بطرس رارش أمير البغدان الذى تآمر مع فرديناند ضد سليمان إبان حصار فينا الأول سنة ١٥٢٩ بعد أن نافق سليمان بالذهاب إليه فى صوفيا ليقسم يمين الولاء ، ويبسط نفوذآل عثمان على البغدان وبعد أن أحرق سليمان قصبة البغدان - ومعه كراى خان القرم- والتجأ رارش إلى ترانسلفانيا، عقد السلطان مجلسا من أفراد البلاد انتخب فيه استيفان أميرا على البلاد ليحل محل أخيه رارش. وأعلن استيفان دخوله دين الاسلام ، وتنازل للعثمانيين عن مدينة «أباق» عند مصب نهر الدنيستر ، كحد أخير لفيالق ودولة آل عثمان [١٢٨]. وكانت العلاقة بين الدولة العثمانية وبين بلاد البغدان تقوم على ما تنص عليه البراءة التى يصدرها السلطان بتعيين الأمير . وكان الأمير يتلقى هذه البراءة بالخضوع والترحاب، ومعها شارات الامارة كالعلم والخلعة وقلنسوة اللباد الحمراء ، ويحملها إليه أحد الأغوات الذى يصحب الأمير إلى حاضرة الإمارة ليجلسه على العرش ويقرأ براءة التعيين على الكافة من جمهور وسادة وقساوسة ، فيعلن جميعهم السمع والطاعة لما أمر به السلطان، وإلا عدت بلادهم «دار حرب» لا «دار عهد» [١٢٩]

وهكذا كانت الصلات والعلاقات بين العثمانيين وبين «بغدان» تقوم على أساس المبدأ الإسلامى «دار العهد» وقد فصلت «العهد ناوات» فى البراءات المختلفة التى أصدرها السلاطين للأمراء مباشرة، والبراءات التى أصدرها هؤلاء الأخيرون إلى مختلف نواحى الإمارة ، بوصف كل أمير عامل الجزية الأول، والقائم على جبايتها للسلطان .. وكذلك خان القرم المشارك فى الغزو والفتح - ، فضلا عن الهدايا (بشكيش) التى تقدم عن طيب خاطر إلى السلطان والوزراء وأهل الحل والعقد ، حسب العرف المستقر حينئذ [١٣٠] .

وكان «الهدنامة» أو البراءة الممنوحة لكل أمير تنص على واجبه فى أن يكون «صديق أصدقاء السلطان وعدواً لأعدائه» بأن يقدم العون العسكرى إذا طلب منه ذلك ، عندما يخرج السلطان إلى ميدان القتال . كما تنص على واجبات السلطان تجاه البغدان ، والتى تنحصر فى حماية الأمير وبلاده من اعدائهم ، وخلع الأمراء الذين يستبدون بهم. ومن قبيل ذلك بما كان من السلطان عثمان الثانى عندما استنقذ «خنين» من قبضة البولنديين ، وحماها بضمها إلى البغدان سنة ١٦٢١م[١٣١].

ولكن من الواضح أنه على الرغم من سياسة الاصلاحات والتنظيمات التى أدخلتها الدولة العثمانية على نهج الحكم فيها بغرض إقامة دولة حديثة على النسق الفرنسى ، فإن نظام الحكم كان مايزال بعيدا عن المثل والمبادئ الديمقراطية والروح القومية التى أخذت تجتاح اوروبا فى شرقيها وغربيها ، وخاصة بين التابعين للعثمانيين من النصارى الذى أخذوا فى المطالبة بالحقوق السياسية والمدنية، واستفحال المسألة الشرقية والمطالبة بحماية الأماكن المقدسة ، وتطلع روسيا إلى الاضطلاع بهذا الدور . وقد قامت سنة ١٨٤٩ فى البغدان ثورة تطالب بالديمقراطية والمساواة فى الحقوق ، تقلص على إثرها سلطان العثمانيين فى الافلاق والبغدان، حتى غزتهما روسيا سنة ١٨٥٣ - الأمر الذى كان فاتحة لحرب القرم [١٣٢]

وعلى الرغم من أن سلامة الدول العثمانية قد ضمنت بوقوف انجلترا وفرنسا الى جانبها عند غزو روسيا للأفلاق والبغدان سنة ١٨٥٣ ، وفى حرب القرم ، وفى صلح

باريس سنة ١٨٥٦ ، إلا أن سيادتها على البغدان بقت إسمية ، بينما أصبحت روسيا هى الدولة الحامية الحقيقية . وانتهى الأمر سنة ١٨٥٩ م أن اتحدت الامارتان التوأمتان (الافلاق والبغدان) فى دولة رومانيا . واعترف السلطان بهذا الاتحاد بعد سنتين من وقوعه فى ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٢٧٨ هـ (٢ ديسمبر سنة ١٨٦١ م). [١٣٣]

وهكذا انتهت دار العهد فى أوروبا ، بانتهاء دور المارد التركى الذى أخذ يتدهور من الداخل ، ووقف عاجزا عن مواجهة اوروبا القومية الحديثة .

ولكن ، مهما يكن من الأمر ، فقد تمسكت الدولة العثمانية بنظرية دار العهد التى أصبحت فى عهد الخلافة الأخيرة نظرية تبتعد عن السياسة التى تطابق الشرع[١٣٤] - على الوجه الذى أوضحناه آنفا- لتصبح نظرية سياسة مدينة، أووضعية وعقلية، تتبع الظروف والمتغيرات التى يقتضيها ضعف الدولة وحال السلطان أو ان شئت فقل العمل بصروف السياسة الأوروبية وموازينها. ومن هذا القبيل ما نراه فى فتوى «العلامة المحقق، والناصح المشفق المدقق، خادم علوم الدنيا والدين بالدروس العامة فى الحرم الشريف النبوى، عبد الرحمن بن أحمد إلياس المدنى» بتحذير المسلمين من الوقوع فى حبائل الإئتلافيين (الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى : انجلترا وفرنسا وروسيا) والوقوف إلى جانب دولة الخلافة العثمانية فى مناصرتها وتحالفها مع دولة الالمان والنمسا والمجر وبلغاريا، «واعانتهم على قتال الائتلافيين» . يقول صاحب الفتوى :

«إعلم أن الله سبحانه وتعالى قد خص أمير المؤمنين بأمور لم يخص بها أحدا غيره من آحاد المؤمنين ، وأمر بطاعته وطاعة عماله، ومن فوض إليهم الأمور من كافة المسلمين. فمن ذلك أنه رخص له أن يعاهد ويوادع ويصالح من يشاء من الدول المحاربة إذا رأى للملة الإسلامية مصلحة فى ذلك . وله أن ينبذ الوعود إليهم إذا ظهر أنفع أو خاف الخيانة من أحد من المعاهدين ... فاعلم أنه كان بين سلاطيننا السابقين وسلطاننا الحالى حفظه الله ووفقه وبين الدول معاهدات قد اشترطوا فيها شروطا شديدة فى عقد الصلح والمعاهدة كما فعلت ذلك قريش فى

صلح الحديبية ، وبذلك صار لهم امتيازات عظيمة فى جميع الممالك العثمانية . ولم تزل دولتنا العلية موفية لهم بتلك المعاهدات ومجرية لهم جميع الامتيازات حتى حصل الغدر والخيانة ، ونقض العهود من أحزاب الائتلاف وسعوا فى الأرض بالفساد ، وشوقوا البعض إلى اعانتهم وشق عصا المسلمين وتفريق كلمة الموحدين ... وزينوا البغى والخروج على أمير المؤمنين ، وأعانوا البغاة والخارجين ، وحرضوا بعض الدول على محاربة الدولة العلية ... ولم يكفهم ذلك حتى قصدوا الاستيلاء على مابقى من بلاد المسلمين وتقسيمها بينهم ، كما فعلوا ذلك فى ممالك الهنديين والمغربيين والنجاريين والسودانيين وغيرهم . فوجب إذاً على أمير المؤمنين ومن فوض إليهم الأمور من رجال دولته نبذ عهودهم إليهم وإلغاء امتيازاتهم وابطالها وإعلان الحرب والجهاد معهم . أما دولة الألمان واوستريا والمجار فإنهم لم يزالوا موفين بالعهود ومسالمين للدولة العلية العثمانية ، ومعاونين لها بالقول والفعل بكل ما يلزم للحرب من كلية وجزئية ، ولم يتعرضوا للمسلمين ولم يسعوا بالفساد بين الأمة المحمدية ، ولم يظاهروا أو يعينوا عليها أحدا من الدولة الأجنبية (؟!) فلذلك وجب على أمير المؤمنين ورجال دولته وعموم المسلمين مسالمتهم، ومست الحاجة واقتضت المصلحة إلى الاتفاق معهم على محاربة الإئتلافيين [١٣٤].

الهــــوامش

(١) انظر فى هذا الشأن

Hans Kelsen, Principles of Internationl Law , 1956, PP. 93-94, 190 ; 200, Louis Delber, Les Principes Generaux Du Droit International Public , 1964 , PP. 179 - 189.

(٢) لا يعنى هذا أن الاقليم لايشكل موضوعا لعلوم انسانية متعددة ، فهو عامل مؤثر فى الظواهر السياسية بقدر ما يساهم فى تكوين السلطة كموضوع من موضوعات علم السياسة. وقد يكون عاملا من العوامل التى تحكم العلاقات بين الدول بقدر ما يساهم فى دفع الدولة إلى ما وراء حدودها - كما يظهر فى نظرية المجال الحيوى Vital Space, Biosphere الألمانية ونظرية الأرض السائلة السوفيتية القديمة والدافعة - إلى السيطرة على العالم- ويكون بذلك من موضوعات العلاقات الدولية والنظرية السياسية وقد يكون هذا الإقليم أيضا عاملا من العوامل التى تتحكم فى الاستراتيجية العسكرية بقدر مايشكل مسرحا للمعارك الحربية. وقد يكون كذلك بما يمثله من موقع جغرافى معين عاملا مؤثرا فى قوة الدول موضوعا من موضوعات علم الجيوبوليتك ولعل ذلك سبب من أسباب صعوبة الالمام بكل جوانب الموضوع ، وعدم اهتمام كثير من الفقهاء بدراسته على هذا النحو.

انظر فى ذلك البحث الضافى للاستاذ الدكتور عبد الرضا الطعان، مساهمة أولية فى دراسة بعض جوانب الاقليم، دراسات قانونية، منشورات الجامعة الليبية ، المجلد الثانى. ١٩٧٢

(٣) نقلا عن المرجع السابق للاستاذ الدكتور عبد الرضا الطعان، ص٦-٨.

(٤) أنظر فى ذلك فصلاً فى : هـ . ج . ولز ، معالم تاريخ الانسانية،المجلد الثانى ، لجنة التألف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٦٩.

(٥) C.A Lazzarides, De, Evolution des Relations Internationales de L' Egypte Pharaonique, Paris, 1922, PP. 18,22-23, 41, 173, 191.
سير ألف جاردنر، مصر الفراعنة، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٣، ص ١٤٩-١٥٤، ٢١٣-٢٢٨، ٢٨٠-٢٨٩، ٢٩٢ - ٢٩٤.

(٦) H.D. Kitto, The Greeks, Pelican Book, 1957, PP. 65- 79, Fustel De Coulanges, La Cite Antique, Paris, 1908, PP. 62 - 63.

(٧) هـ. ج. ولز، المرجع السابق ، ص ٣٧٨ - ٣٨١ ، أرنولد توينبى، مختصر دراسة التاريخ (ترجمة فؤاد شبل، لجنة التأليف والترجمة والنشر.١٩٦١،ص.٧٠- ٧٣

(٨) هـ. ج. ولز، المرجع السابق ، ص ٦٢٨ ، قصة الحضارة ، قيصر والمسيح ،ص ٣٩٣.

(٩) Fustel De Coulanges, op . cit., PP. 439 - 441.

(١٠) Ibid, PP. 441- 445.

(١١) Ibid , PP. 442 - 443.

(١٢) يعتقد البعض خطأ أن هذا القانون Gentiume هو قرين القانون الدولى العام فى العصر الحديث، والحقيقة أنه كان أقرب للقانون الدولى الخاص منه إلى القانون الدولى العام والأصل فى هذا الخطأ هو التأثير غير المباشر لمصطلحات القانون الرومانى على كتاب القانون الدولى العام حتى القرنين ١٧، ١٨ واستخدامهم لهذه المصطلحات الرومانية الخاصة بالملكية الخاصة Dominium والتى تأثرت بها فكرة السيادة الاقليمية وكذلك قواعد العقود الرومانية التى انتقلت إلى قواعد المعاهدات فى القانون الدولى العام ، وقواعد حماية وظائف الممثلين الدبلوماسيين مثلا بل إن تسمية القانون الدولى العام لدى البعض بـ law of Nations, Volkerrechte, Droit des gens هى فى الواقع ترجمة حرفية لعبارة Jus Gentium التى كانت تعنى قانونا من نوع آخر عند الرومان . فالقانون الرومانى فى طوره التاريخى الكلاسيكى كان قانونا يتصف بالجمود والخشونة harsh والضيق والشكليات الكثيرة المعقدة فى الاجراءات. ولما كان قاصراً فى تطبيقه على المواطنين الرومان، فقد ظل غير الرومان من الناحية النظرية خارج نطاق هذا القانون

الفج العتيق Jus Civile, الذى ما لبث أن دعته ضرورات تطوير ونمو علاقاتها الامبراطورية أن يستأثر بنظر الاجانب وضرورة إيجاد سبيل أومخرج للتعامل معهم (ولاسيما أبناء البلاد التى تتمتع فى نظر روما بقسط من المدنية والحضارة كالمدن اليونانية وقرطاجنة بعد عقدها معاهدات التحالف مع روما.

ومنذئذ انشئ قضاة خاصون للنظر فى المنازعات ذت العنصر الأجنبى سواء بين الأجانب وبعضهم البعض أو بينهم وبين الرومان ، وهم من أسموا بقضاة الاجانب Praetor pereginus وبذا نشأت قواعد جديدة أكثر ليبرالية وتساهلا، هى خليط من قواعد القانون الرومانى والقوانين الأجنبية (ولا سيما في مدن الاغريق)، ثم ما لبثت أن اشربت بمبادئ عامة فلسفية للعدل والانصاف بل ما لبثت هذه القواعد الجديدة أن غذت القانون الرومانى الكلاسيكى نفسه بأن إنتقلت إلى حكم المنازعات بين المواطنين الرومان أنفسهم، وهجر الكثير من الشكليات التقليدية المعقدة . فاعترف مثلا بعقود البيع والشراء الشفوية بعد أن كان القانون الرومانى يشترط لها شهادة خمسة شهود .. الخ وهكذا أصبح قانون الشعوب رمزا للتسامح والليبرالية تجاه الشعوب والثقافات الأجنبية، ولكن لاعلاقة له بالقانون الدولى العام الذى يحكم العلاقات بين الدول المستقلة، لأنه كان قانونا يختص بالعلاقات بين الأفراد . بل إنه بمثابة قانون رومانى داخلى National للعلاقة مع أوبين أفراد تلك الشعوب .

وقد أختص الفقيه الرمانى الشهير Gaius فى القرن الثانى للميلاد قانون الشعوب بأنه القانون الذى ينشأ بين جميع الناس على أساس العقل المطلق والطبيعى وتقوم على مراعاته كل الأمم والشعوب، وأنه فى هذا يقابل القانون الرومانى jus civile الذى تنشئه كل أمة لنفسها ولعل فى هذا الغموض ما أثار لدى كتاب العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة بأنه قانون ينظم العلاقات بين الأمم والدول المستقلة.

انظر فى هذا الشأن

Arthur Nussbaum, A Concise History of the Law of Nations, 1947 , PP 17 - 20

(١٣) Coulanges, op. cit. PP. 442- 443.

(١٤) Ibid, P. 438.

(١٥) ول ديورانت ، قصة الحضارة (قيصر والمسيح) ، ترجمة محمد بدران ، الجامعة العربية ، ١٩٥٥ ، ص ١٧٩

(١٦) هـ . ج ولز ، المرجع السابق ، ص ٥١٣

(١٧) ول ديورانت ، المرجع السابق ص ٩٣

(١٨) هـ. ج. ولز ،المرجع السابق ، ص ٥٣٨

(١٩) المرجع السابق ، ص ٥٥٤- ٥٥٥

(٢٠) ول ديورانت ، المرجع السابق ص ٢٢٣

(٢١) دكتور ابراهيم نصحى، تاريخ مصرفى عصر البطالمة ، الجزء الثانى ،القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٤ ، ٢١٠.

(٢٢) د. محمد صبحى، العلاقات بين مصر والدول الشرقية فى العصر الهيلينستى، المجلة التاريخية المصرية، أكتوبر ١٩٥٠، ص ٣٠ - ٣١

(٢٣) د. محمد صبحى ، تاريخ مصرفى عصر البطالمة ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٨٤، ص ١٣١ ، ١٥٩، ١٦٤.

(٢٤) ذهب السفير إلي الإسكندرية وهناك تمت المقابلة الشهيرة التى مد فيها المللك أنطيوخوس الرابع يده إلى السفير لمصافحته فأبى السفير أن يصافح الملك ، بل وضع فى يده رسالة مجلس الشيوخ الرومانى ، وطلب منه أن يقرأها بحضوره ، فلما اطلع عليها الملك قال أنه سيتدبر الأمر مع رفاقه. فلم يكن من السفير إلا أن خط بعصاه دائرة حول الملك ، وطلب منه ألا يخطو خارج هذه الدائرة قبل أن يفصح كتابة عما يدور فى خلده . فأخذ الملك بهذا المسلك الغريب الجرئ ، وتردد لحظة ، ثم أعلن أنه سيستجيب إلى المطالب الرومانية بالخروج عن مصر. عندئذ تقدم السفير يصافح الملك، وحياه تحية ودية.

وهكذا خرج انطيوخوس من مصر ذليلا مهانا، وأصبحت مصر تحت حماية روما. ولم يكن ذلك حبا فى حماية مصر قدر ما كان خوفا من إتساع امبراطورية السلوقيين - حلفاء مقدونيا - فى شرق البحر المتوسط ، حتى حان الوقت لقيام

بومبى سنة ٦٤ ق. م بفتح سلوقية (سورية).

انظر د. محمد صبحى ، العلاقات بين مصر والدول الشرقية ، المرجع السابق ، ص ٣٩ - ٤٣.

(٢٥) هـ . ج. . ولز المرجع السابق ، ص ٥٧٠

(٢٦) د. محمد صبحى، العلاقة بين مصر والدول الشرقية ، المرجع السابق ص ٥٩٢ - ٥٩٩ .

(٢٧) المرجع السابق، ص ٤٣ - ٤٤ ، ويلز، المرجع السابق، ص ٥٩٢ - ٥٩٩ ، ول ديورانت ، المرجع السابق ، ص ٣٨١ - ٤١٧

كانت كليو بطرة السابعة - فتنة للناظرين ، غانية خفيفة الظل متنوعة الثقافة دمثة الحديث، تجيد الكلام بلغات ولهجات عدة، حتى لهجة بدو سيناء. ألفت رسالة فى مستحضرات التجميل ، وأخرى فى المقاييس والموازين والنقود. وكانت إلى جانب هذا حاكمة قديرة وإدارية ماهرة، ارتقت فى عهدها الصناعة والتجارة وكانت ذات مطامع سياسية بعيدة ، ووحشية حقيقية، تصب على أعدائها الموت صبا. ولم تكن أسيرة حب أى من القادة والقياصرة الذين اجتذبتهم إليها، بل كانت تعمل على أن تجتذب هى روما الشرهة وامبراطوريتها إلى سيادتها الشخصية . فقد كانت تدرك بدهائها أن مصر لم تعد قادرة على البقاء وحدها مستقلة عن الدولة الرومانية وعن الامبراطورية الرومانية . من ثم رمت إلى أن تكون هى بلحاظها وفتنتها المسيطرة على روما وعالم البحر المتوسط. فبعد وفاة أبيها بطليموس الحادى عشر الذى أجلسه بومبى وحابنيوس على عرش مصر، جلست هى وأخوها بطليموس الثانى على العرش، بعد أن تزوج الأخ أخته كوصية أبيهما. فلما جاء يوليوس قيصر إلى مصر وعلم بنفى بوثينس لها ، وتنصيب نفسه نائبا أو وصيا على عرش أخيها الصغير، أرسل إليها سرا فجاءته وقد أخفت نفسها فى فراش حمله تابعها الى مقر قيصر الذى ذهل حين رآها، وأسرته بشجاعتها وسرعة بديهتها، أعادها إلى العرش . وبقى قيصر إلى جانبها فى الاسكندرية ، يلهو معها ، تسعة أشهر حتى أفاقت من مخاض الوضع لابنة «قيصرون» منها سنة ٤٧ ق .م ولم يأبه قيصر من حاجة روما إليه حتى استصحبها معه إلى روما سنة ٤٦ ق.م ، حتى ضاق الناس ضيقا

مريرا بسلطانها، وتآمر عليه دعاة الحرية وقتله ماركوس بروتس سنة ٤٤ ق.م. ولا يبعد أن تكون قد أسرت إليه بفكرة الاعتراف بقيصرون وأن يتزوجها فيجتمع عالم البحر المتوسط تحت فراش واحد.

وقد كان انطونيوس الذى حزن لقتل قائد عظيم، قضى الشطر الأعظم من حياته فى القتال والمعسكرات، كما قضى أكثرها فى معاقرة الحرب ومجالس النساء وحين اختص انطونيس بالشرق من تركة قيصر، أرسل إلى كليوبطرة ولعله كان يعرفها فى روما من قبل - للمثول بين يديه فى طرسوس، فجاءت فى الوقت الذى اختارته، وبالطريقة التى اختارتها، تركب فى قارب ذى أشرعة ارجوانية، وسكان من ذهب، ومجاديف من فضة، تضرب الماء فى نهر سندس على أنغام الناى والمزمار والقيثار . وكانت وصيفاتها هن بحارة القارب فى زى حور البحار ودعته كيلوبطرة إلى العشاء فى القارب - وهى الذى أراد استجوابها على مساعدة خصمه كاسيوس على جمع المال والجنود - فلم يستطع إلا أن يلبى دعوتها . وانتهى. اللقاء بأن أهدى إليها فينيقية وجوف سوريا وقبرص وأجزاء من بلاد قليقية وبلاد العرب واليهود - وفى سنة ٣١ ق.م هزم أنطونيو فى معركة أكتيوم البحرية نتيجة أن تخلت عنه كيلوبطرة وفرت بأسطولها إلى مصر . فلما أن أتى إكتافيوس إلى مصر أرادت أن تظهر أمامه بمظهر المرأه الحزينة المهيضة الجناح، ولكن قيصر أراد أن يأسرها فقضت على نفسها منتحرة .

(٢٨) انظر فى هذا الشأن M. Patiemkine, Histore De La Diplomatie, Tome I,PP.64- 68; Gerard Walters, les Evenements, La Mont Des Sassanides, Allin Michal, 1964, PP. 65- 79; Histore Universelle, Larousse de poche II. IV soiecles, 1968, PP.90-94.

(٢٩) فشابور الأول يحتد على أرمينية لكونها تعاونت مع روما ضده، ويزحف عليها ويقيم فيها أسرة مالكة موالية لفارس سنة ٢٥٢ م. وبذلك حمى جناحه الأيمن، ثم عاد إلى قتال روما حتى هزمه الإمبراطور فليريان وأسره سنة ٢٦٠م، ثم نهب أنطاكية التى كانت قد أصبحت وقتئذ فارسية وانتهت الحرب بأن عاد نهر الفرات مرة أخرى هو الحد الفاصل بين الدولتين (قصة الحضارة - العدد١٢،ص٢٨٨).

وفى سنة ٣٣٧ م شن شابور الثانى الحرب على روما وارمينية مرة أخرى للانتقام من اعتناق ارمينية المسيحية، ومن أجل السيطرة على طرقها التجارية ، وانتهت هذه الغزوة الفارسية بتقسيم ارمينية بين الساسانيين والرومان سنة ٣٨٧م فالجزء الأكبر - وهو أرمينية الشرقية ذات الموانع والجبال فى أعلى دجلة والفرات تبعت فارس، بينما الجزء الغربى الصغير يتبع روما . وهكذا إنسلخت أرمينية بين الدولتين الكبيرتين وظل ذلك طويلا حتى هزم الروم - وكانت بيزنطة قد ورثت أملاك الرومان فى آسيا الصغرى - كسرى الثانى فى معركة هراة فى سورية، واشترط الروم لاعادته الى عرشه أن تنسحب فارس من ارمينية سنة ٥٩٦ م . وقد ظلت المناوشات والحروب بينهما حول الأهمية الإستراتيجية والتجارية لأرمينية على هذا المنوال، حتى أعد هرقل ملك الروم اسطولا إخترق به أرمينية من البحر، وهاجم فارس من خلفها، وهزم جيوش كسرى كلها ، الواحد تلو الآخر ودمر مسقط رأس زرادشت سنة ٦٢٨م وقد جاء هذ النصر مصدقا لنبوءة القرآن الكريم : «ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصرمن يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثرالناس لا يعلمون» - قصة الحضارة، المرجع السابق ، ص ٢٩٤ - ٢٩٦ ، وانظر مادة أرمينية فى دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، المجلد الثالث ، كتاب الشعب بالقاهرة.

(٣٠) قيض لروما فى هذه الأثناء أن تقوم على تقسيم الولايات والمقاطعات وانشاء المستقرات والمستعمرات، واخماد الحروب الأهلية، وانشاء الطرق ونظام البريد، والقضاء على القرصنة البحرية، على يد عدد من الأباطرة العظام أمثال قيصر واغسطس وماركوس اوريليوس وتراجان وهدريان وكلوديوس قاهر القوط.

(٣١) سور هدريان بين مدينة نيوكاسل ومدينة كارليل عبر الجزيرة البريطانية وقد حفرت الخنادق من أمامه ومن خلفه، وأقيمت على طوله المعسكرات الرومانية (هـ . ج. ويلز، المرجع السابق ، ص ٦١٤.

(٣٢) أرنولد توينبى ، مختصر دراسة للتاريخ ، الجزء الثانى ، ترجمة المرحوم

فؤاد شبل، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢١٤ - ٢٢٢.

(٣٣) موريس لومبار، الاسلام فى مجده الأول ، ترجمة اسماعيل العربى، المغرب ، ١٩٩٠ ، ص ٦٥- ٦٦.

(٣٤) د. محمد فتحى الشاعر، السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية، القاهرة ، ١٩٨٩، ص ١٦١- ١٩٦.

(٣٥) أرنولد توينبى ، المرجع السابق ص ٢١٦، ٢١٧، د. محمد فتحى الشاعر، المرجع السابق، ص ١٨٨-١٨٩.

(٣٦) موريس لومبارالمرجع السابق ، ص ٦٦.

(٣٧) انظر فى تفصيل ذلك : دكتور محمد عبد الهادى شعيرة، المرابطون فى الثغور العربية الرومية ، أبحاث مهداة إلى طه حسين ، ١٩٦٠، ص ١٤٧- ١٦٥.

(٣٨) انظر فى هذا الشأن تفصيلاً بحث الكاتب: السيادة والسياسة فى الدولة الاسلامية ، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، العدد السادس، سنة ١٩٧٥، ص ٣٣-٤٤.

(٣٩) كانت سلسلة الثغور والرباطات تمتد من سورية حتى المغرب الأقصى وأسبانيا ، وخصوصا على الساحل التونسى وتعنى المرابط اورباطات الجيش ملازمة التخوم. وهى كلمة يرجع أصلها إلى المرابطين الملثمين فى الساقية الحمراء. ثم اتسع معناها، لتشمل جماعات الزهاد والعلماء والأتقياء الذين يوقفون حياتهم على العبادة والجهاد، ثم انتشروا فى داخل بلاد المغرب وكونوا الزوايا.

(٤٠) كانت حملات الغزو والفتح من هذه الثغور شبيهة بحملات التيوتون على بلاد الصقالبة .

موريس لومبار ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٤١) دكتور محمد عبد الهادى شعيرة ، المرجع السابق ، ص ١٦٢.

(٤٢) المرجع نفسه، ص ١٦١.

(٤٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٨٦.

(٤٤) د. محمد عبد الهادى شعيرة، الممالك الحليفة، مجلة كلية الآداب، جامعة

الاسكندرية، المجلد الرابع، سنة ١٩٤٨، ص ٥٢-٦٢.

(٤٥) د. محمد عبد الهادى شعيرة، المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية، مرجع سابق، ص ١٦٤.

(٤٦) من البديهى أن النقاط الاستراتيجية فى منطقة بعينها لاتكاد تختلف باختلاف العصور وفعلا جاءت الثغور العباسية فى نفس أماكن قلاع وحصون الأجناد الأموية، أو على الاساس القديم السابق على الاسلام ، بصرف النظر عن الترميمات والتدعيمات وما استحدثته الدولة العباسية من مدن ثغرية جديدة . ومن هذه الانشاءات المستحدثة عين زربة والكنيسة السوداء والهارونية وكفربيا حصن منصور وطرسوس . وتقع هذه الحصون الجديدة ما عدا حصن منصور فى المنطقة الساحلية ، انظر دائرة المعارف الاسلامية، الجزء العاشر، الترجمة العربية ص ٣٣٩، د. شعيرة، المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٤٧) ذكر صاحب صبح الأعشى أن تخوم دولة المماليك - أى فى عهد الحروب الصليبية المتأخرة- فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) كانت تضم هذه العواصم والثغور. وكان ممر بيلان الجبلى فى عهد المماليك يعرف باسم ذكر الاسكندرونة . وبيلان بلدة كانت من أعمال قضاء حلب وهى اليوم من أعمال سنجق الاسكندرونة وهى الموقع الذى هزم فيه ابراهيم باشا ابن محمد على الجيوش العثمانية فى ٣٠ من شهر يوليو سنة ١٨٣٢ ، وأصبح يسيطر على كل الديار الشامية ، دائرة المعارف الاسلامية ، المرجع السابق، الجزء العاشر ، ص٣٣٩، الجزء العاشر ، ص ٤٩.

(٤٨) د. شعيرة، المرجع السابق ، ص ١٦٠، ١٦٦

(٤٩) أبو الحسن البلاذرى، فتوح البلدان، منشورات مكتبة الهلال ببيروت ، ص ١٦٥.

(٥٠) المرجع السابق ، ص ١٥٠.

(٥١) لومبار، المرجع السابق، ص ٧٩، ٨٠، ٨١، ٩٦. وترجع كلمة رباط بمعنى ملازمة التخوم إلى المرابطين الملثمين الذين كانوا يرابطون فى الساقية الحمراء. ثم

اتسع المعنى ليشمل جماعة الزهاد والعلماء والأتقياء الذين يوقفون حياتهم على العبادة والجهاد.

(٥٢) لومبار، المرجع السابق ، ص ٩٨.

(٥٣) صبح الأعشى للقلقشندى، القاهرة، الجزء الرابع، ص ٢٢٨

(٥٤) نقلاً عن الموسوعة الإسلامية، المرجع السابق، الجزء العاشر،ص ٣٣٩

(٥٥) لومبار، المرجع السابق ، ص ١١١.

(٥٦) لومبار، المرجع السابق، ص ٦٤-٦٥.

(٥٧) لومبار، المرجع السابق ، ص ٨٧- ٨٩.

(٥٨) كان نهر المرغاب آخر أرض دار الاسلام بعد استسلام الفرس- فقد كان نهر المرغاب يشكل الحد الشمالى الطبيعى لايران الساسانية. أما مابين المرغاب وبين جيحون الذى هو حد ماوراء النهر، المصطلح عليه فى الجغرافيا، فكان واقعا تحت نفوذ أتراك آسيا الوسطى، وماكان فيه من فرس موالى للاتراك كما يقول بارتولد فى مقاله بدائرة المعارف الاسلامية، وكما تدل المصادر العربية. ولم يكن بد أن يستأنف العرب النزاع بين ايران والترك الطورانيين بصورة ما استجابة لدوافع هذا النزاع الجنسية والجغرافية والاستراتيجية. فقام العرب مقام الفرس، ولاسيما بعد أن اضطربت طاعة خراسان وظلت ملتاثة حتى مقتل الامام على، والتفت الأمويون إلى ضرورة حماية الحدود الشرقية، فأنزلوا جندهم فى مرو بعد سنة ٤٥ للهجرة، ثم كان عبور النهر لأول مرة على أرجح الروايات على يد سعد بن الخليفة عثمان فى النصف الأخير من خلافة معاوية ..... وكانت بعض القبائل العربية التى أقامت بخراسان قد اتصلت بالترك اتصالا غير رسمى ناتجا عن التجاء بعض القبائل العربية الساخطة إلى الترك واجارة ملوك الترك لهم ، كما حدث فى لجوء موسى بن عبد الله بن خازم إلى أرض الترك وإجابة صاحب سمرقند له، فعرف العرب بلاد ماوراء النهر معرفة صحيحة، لم تكن قليلة النفع حين عادت هذه القبائل نفسها- وغيرها- محاربة فاتحة تحمل لواء الطاعة فيما بعد لا لواء العصيان.

(انظر فى تفصيل ذلك، د. شعيرة، الممالك الحليفة، المرجع السابق، ص ٤٠، ٤٢)

(٥٩) وكان هذا حال الختل الذين بالغوا فى الاعتزاز بقوميتهم، وظل العرب يقاتلونهم ويغزونهم ، فيقبلون منهم الطاعة الاسمية أحيانا. ويبادلونهم الحرب أحيانا أخرى.. وظل الحال هكذا حتى استقر المسلمون فى نواحى بخارى وسمرقند، وأخذوا يغزون الختل، وأخذوا يجتازون فى أرض الترك حتى انتهت كل مقاومة فى جميع اراضى ماوراء النهر، ورجع ملوك الختل إلى المدافعة والخضوع عملا بخطة ملوكهم الذين أثر عنهم قولهم «لا تحاربوا العرب وإدفعوهم عنكم بكل حيلة ... وإنكم إن حاربتوهم هلكتم».

انظر د. محمد عبد الهادى شعيرة، الممالك الحليفة، مجلة كلية الآداب، جامعة فاروق الأول، المجلد الرابع، سنة ١٩٤٨، ص ٥٣-٥٥، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، القاهرة، ١٩٣٣، الجزء الرابع، عام ١٠٠، ١٠٨، ١١٩، ١٣٣.

(٦٠) ومن قبيل هذه البلاد كانت طخارستان أيام فتوح قتيبة. فقد قبل ملكهم جبغوية عنده فى بلخ عاملا عربيا. ولم يكن هذا العامل يعتمد على جيش عربى مقيم بناحيته وإنما كان اعتماده على هيبة الاسلام وعلى العهد الذى يربط مملكته بالاسلام، واشترك بقواته (الطخاريون وينزك خاصة) فى الغزو مع المسلمين . فلما رآت طخارستان من فتوح العرب فى ماوراء النهر ما هالها خشيت على نفسها، وكأنها لم تكن قد فطنت إلى عواقب سياسة العهد أو الحلف ، فثارت أول مرة عام ٩٠ - أيام قتيبة- ففرض عليها المسلمون حلفهم، واحتلوا مدينة بلخ، وقبل الطخاريون الحلف الذى خافوه وثاروا عليه من قبل.

وهكذا قد يصدق قول الدكتور شعيرة: إن الظروف والأحوال قد خدعت بعض الممالك التركية فقبلت أن تكون منطقة نفوذ للعرب، لأن الأمر لم يكن احتلالا فى أول الأمر. فلما حول العرب نفوذهم إحتلالا، كانت هذه البلاد والممالك قد تأثرت بالاسلام وتهيأت للدخول فيه.

ابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص٩٠ ، وشعيرة ، المرجع السابق ، ص ٥٣ -٥٤

(٦١) د. شعيرة، مرجع سابق، ص ٥٤ -٥٥

(٦٢) أندريه مايكل، جغرافية دار الاسلام البشرية، ترجمة ابراهيم خورى، منشورات دار الثقافة بسوريا، سنة ١٩٨٥، الجزء الثانى، ص ٣١٨- ٣٢٠.

(٦٣) كان المأمون هو الذى افتتح هذه السياسة، وسار عليها المعتصم حتى أصبحت قيادة الجند فى عصره للاتراك. ولكن الواقع أن الترك قد دخلوا بلاط الخلفاء على عهد المنصور ، قبل أن يدخلوا فى الجيش. والواقع أن ما فعله العرب من تجنيد الترك واشراكهم فى الغزو، قد سبقهم إليه الرومان وأكاسرة الفرس وغيرهم من الامبراطوريات الكبيرة. فقد كانت هذه الامبراطويرات تعتبر ذلك رمزا لسيادتها وعظمتها، وهكذا فعل العرب مع الجراجمة وترك آسيا الوسطى.

(٦٤) انظر فى تفصيل ذلك، البلاذرى، المرجع السابق ، ص ٧١-٧٥

(٦٥) القاضى أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم ، كتاب الخراج، القاهرة ، المطبعة السلفية، الطبعة الثانية، سنة ١٣٥٢هـ ، ص ١٢٠، وانظر كذلك فى هذا الشأن : يحيى بن آدم، كتاب الخراج ، دار التراث، الطبعة الثانية، ص ٢٧ ، ٢٨، ٦٦.

(٦٦) فلما كان عام ٣٢ هـ أعانوا الروم على الغزاه فى البحر بمراكب أعطوهم إياها فغزاهم معاوية سنة ٣٣ هـ فى خمسمائة مركب، ففتح قبرص عنوة وقتل وسبى، ثم أقرهم على صلحهم وبعث إليها باثنى عشر ألفا كلهم أهل ديوان فبنوا بها المساجد - البلاذرى ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ - ١٥٧.

(٦٧) البقط فى اللغة الشئ القليل والتفرقة وما يسقط من التمر، على خلاف القبط بمعنى الجمع (لسان العرب، مادة بقط) . وقد نحا البعض خطأ أن اللفظ مأخوذ من الكلمة اللاتينية، Pactum بمعنى العهد والميثاق، وأن هذا هو معناها على ما جاء عند ابن عبد الحكم والبلاذرى والمقريزى. ولكن الصحيح على مانرى أنه اصطلاح خاص بالاتاو. أو ماصولح عليه أهل النوبة والبجة- مثل ما صولح أهل شمال العراق على الطسق الذى يؤدونه فى كل عام، وهو اصطلاح قريب من كلمةTaxus اللاتينة بمعنى الضريبة.أما البقط فنرى أن الاصل فيه الكلمة المصرية القديمة Pakt بمعنى عبد أو عدد الرؤوس من سبايا النوبة وأبناء البجة.

(انظر فى ذلك دائرة المعارف الاسلامية ، مادة بقط).

(٦٨) انظر خطط المقريزى ، الجزء الأول طبعة مصر سنة ، ص ٢٠١. وفى رواية ابن عبد الحكم : «قال ابن حبيب فى حديثه وإن عبد الله صالحهم على هدنتبينهم على أنهم لا يغزونهم ولا يغزوا النوبة المسلمين وأن النوبة يؤدون فى كل سنة إلى المسلمين كذا وكذا رأسا من السبى (العبيد) ، وأن المسلمين يؤدون إليهم من القمح كذا وكذا ومن العدس كذا وكذا فى كل سنة . قال بن أبى حبيب وليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولا ميثاق، وإنما هى هدنة أمان بعضنا من بعض. (كتاب فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم، طبعة لندن، ١٩٢٠، ص ١٨٨) وفى رواية البلاذرى .... وكان المهدى أمير المؤمنين أمر بالزام النوبة فى كل سنة بثلثمائة رأس وستين رأسا وزرافة على أن يعطوا قمحا وخل أحمر وثيابا وفرشا أوقيمته. وقد ادعوا حديثا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة فأمر بأن يحملوا على ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة» (فتوح البلدان، المرجع السابق ، ص ٢٣٥)

(٦٩) قال وحدثنا القاسم بن سلام عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد، قال : «إنما الصلح بيننا وبين النوبة على أن لا نقاتلهم ولا يقاتلونا وأن يعطونا رقيقا ونعطيهم نقد ذلك طعاما. فإن باعونا نساءهم وأبناءهم لم أر بذلك بأسا أن يشترى... «البلاذرى، المرجع السابق، ص٢٣٥).

(٧٠) ما بين معقوفتين لنا- الامام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى، كتاب الأم ، طبع دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٢ هـ ، الجزء الرابع ص١٨٢، ٢٠٧

(٧١) يعنى الاستيلاء عليها صلحا.

(٧٢) أبو الحسن على بن حبيب الماوردى ، الأحكام السلطانية، القاهرة ، دار الفكر ، ص ١٣٨.

(٧٣) Frede Lokkegaar, Islamic Taxation In The Classic Period. Copenhagen, 1950, PP. 67-91.

(٧٤) Bernard Leuis, The Maslim Discovery of Europe, London, Nicolson, 1982, P. 62.

(٧٥) يود الكاتب أن يشيد فى هذا الخصوص بزمالة وصداقة وطيدة مع المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة أستاذ التاريخ الاسلامى فى الجامعات

المصرية بالقاهرة والاسكندرية وعين شمس، خلال عملهما بتحقيق التراث لفترة طويلة فى دار الكتب المصرية بباب الخلق.

(٧٦) M.A. Cheira (Alexandrie), Actes Du XXI Congres Interntional Des Orientalistes, Paris, 1948, PP. 275 - 277.

(٧٧) المرجع السابق الاشارة إليه.

(٧٨) شعيرة ، المرجع السابق، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٧٩) Los Documentos Arabes Diplomatuos Del Archiuo De La Corona De Aragon, Editadon y Traducidos Por Maximiliano A Alaron y Santon y Ramon Garcia De Linares, Madrid, 1940.

وقد حصلنا عليها اهداءً من صديقنا المرحوم الأستاذ الدكتور عبد العزيز الاهوانى.

(٨٠) الوثيقة الثالثة من مجموعة الوثائق المشار إليها ، ما بين معقوفتين لنا-

(٨١) الوثيقة السابعة من مجموعة الوثائق المشار إليها - مابين معقوفتين لنا-

(٨٢) الوثيقة ١٦١ من مجموعة الوثائق المشار إليها .

(٨٣) فعلى الرغم من أن الفاتحين الأوائل بقيادة طارق وموسى بن نصير قد وصلوا خلال ثلاث سنوات فحسب إلى أقصى الحدود الشمالية حيث توقف الاستيطان المستقر للعرب ، ورغم أنهم تجاوزوا جبال البرانس فى غزوة عبد الرحمن الغافقى حتى تور حيث هزمهم شارل مارتل فى بواتييه بحوض نهر اللوار سنة ٧٣٢م ، ورغم أنهم أعقبوا ذلك باحتلال لانجدوك وروسيلون ومونبيليه واقليم البروفانس (نهم وآرل وأفنيون وشالون) وحوض نهر الرون الاسفل حيث بنوا القلاع وحصونها لمدة تزيد أو تقل عن الخمسين عاما، كما احتلوا بسفنهم خليج سان تروبيه وجبل القلال (كما يسميه ابن حوقل فى صورة الأرض) أو القلة (كما يسميه ابن خلدون فى المقدمة) حوالى التسعين عاما (سنة ٨٩٠م - إلى سنة ٩٧٣م تقريبا) ، ومن هناك تسللوا إلى جرتينو بل وڤاليه وداروا مع بحيرة جنيف على حدود جبال الألب من جانب، ووصلوا إلى سان Sens على مبعدة مائة كيلو متر من باريس فى جانب آخر ، ولكن من المعلوم أنه فيما عدا غزوة عبد الرحمن الغافقى بقصد الفتح، لم

تكن هذ الأخيرة كلها. إلا مجرد غارات تستهدف قطع الطرق وتجارة الرقيق، ولا تحمل أى معنى حضارى أو هدفا دينيا وثقافيا.

انظر فى هذا الشأن و Ch. Edufourcq

La vie Quotidienne dans la Europe Medieviale le Sous la Domination Arabe , Hachette, Paris, 1978, PP. 17-32.

(٨٤) برنارد لويس ، الاسلام فى عالم البحر المتوسط ، فى تراث الاسلام تصنيف شاخت وبوزورث ، القسم الأول، ترجمة د. شاكر مصطفى، عالم المعرفة بالكويت، ١٩٧٨، ص ١٢٩-١٣٢.

(٨٥) المرجع السابق ، ص ١٣١.

(٨٦) الوثيقة رقم ٧٨ من مجموعة الوثائق السابق الاشارة إليها.

(٨٧) الوثيقة رقم ١٥٥ من مجموعة الوثائق السابق الاشارة إليها.

(٨٨) الوثيقة رقم ١٥٥ من مجموعة الوثائق السابق الإشارة إليها.

(٨٩) ومن المعلوم أنه كان ليهود أوروبا مسعى فى ذلك تيسيرا لمصالحهم التجارية، وبمسعى من كبير التراجمة بالبلاط المملوكى (وزير الشئون الخارجية) وقتذاك ، و كان مملوكا من أصل يهودى قشتالى من مواليد أشبيلية يدعى شام.

- انشر الدكتور أحمد دراج ، المماليك والفرنج، دار الفكر العربى بالقاهرة، ص٣٦.

(٩٠) المرجع السابق ، ص ١٣٠- ١٤٧.

(٩١) المرجع السابق ، ص ٥١-٥٢.

(٩٢) الكتاب محفوظ ببطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة، ومؤرخ فى ١٦ كيهك سنة ١١٧٩ ش - وذلك نقلا عن دكتور حكيم أمين عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ، سنة ١٩٦٧ ، ص ١٧٦ - ١٨٠.

(٩٣) المرجع السابق ، ص ١٦٢.

(٩٤) كانت انتصارات سليمان القانونى (١٥٢٠ -١٥٦٦) أعلى نقطة وصل إليها المد العثمانى . ثم انسحبت الجيوش العثمانية من حول فينا والاساطيل العثمانية فى المحيط الهندى.

(٩٥) أعقب هذه الاتفاقية إعداد إتفاقية ثانية فى ١٥ إبريل سنة ١٤٩٣ ضمت تواقيع أبى عبدالله والملك فرناندو والملكة ايزابيلا الكاثوليكية، وجرى التوقيع عليها فى ٢٣ رمضان سنة ٨٩٤ هـ / ٧ أغسطس سنة ١٤٩٣م. وعبر الاندلسيون بعد ذلك البحر الى المغرب، وتوزعوا فى الارض، ووصل قسم كبير منهم الى اسطنبول بعد ان فتحت القسطنطينة باستخدام المدافع اول ما استخدمت على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ واقاموا فى محلة غلطة بجوار جامع العرب الذى ما يزال قائماً الى الأن - انظر دراسة محمود السيد الدغيم، جريدة الحياة، ٤ سبتمبر ١٩٩٢.

ومن إستنجاد الأندلسيين بالعثمانيين بعد أن فشلوا فى ذلك مع مماليك القاهرة قصيدة أرسلت إلى السلطان بايزيد الثانى (١٤٨١- ١٥١٢) جاء فيها :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم ∴ بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهودا كان قد غرنا بها ∴ ونصرنا كرهاً بعنف وسطوة
وكل كتاب كان فى أمر ديننا ∴ ففى النار ألقوه بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم ∴ ولا مصحفا يخلى به للقراءة
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا ∴ إليه لجادت بالدموع الغزيرة
فيا ويلنا يابؤس ما قد أصابنا ∴ من الضر والبلوى وثوب المذلة

(٩٦) كان نجاح بايزيد الاول فى فتوحه وفى توحيد آسيا الصغرى كلها تحت لوائه سبباً فى وقوع الصراع بينه وبين تيمور لنك، ووقعت المعركة بينهما عند أنقرة سنة ١٤٠٣م حيث وقع بايزيد فى الاسر ووضعه تيمور فى قفص من ذهب لاذلاله على حد الرواية. على أن بايزيد أثر الانتحار ومع ذلك فإن تيمور لنك لم يقض

على دولة الترك لاعجابه ببسالتهم ودفاعهم عن الاسلام حتى انه انتزع أزمير من قبضة فرسان القديس يوحنا وتركها للاتراك

(٩٧) ويعرف هذا النظام باسم «الدوشرمة»، وهم صبيان وأبناء النصارى الذين يؤخذون بدل الجزية ويربون فى المعسكرات تربية عسكرية ويثقفون بتعاليم الدين الاسلامى وأصبح معظمهم جنوداً فى جيش السلطان وهم «الانكشارية» اما الباقون فكانوا يتولون وظائف القصور والادارة فى الولايات وكانوا عنصراً نافعاً رشيداً ونشيطاً فى خدمة مرافق الدولة وقوتها ذلك ان الاتراك العثمانيين الذين أدركوا التوسع السريع فى البلقان ، كان عددهم قليلاً جداً بالنسبة لاعداد رعاياهم من المسيحين ولهذا ظل سلطانهم مقصوراً على مجارى الانهار والطرق الرئيسية التى اتخذوها حداً لدولتهم . اما بقية البلاد فقد ظلت خاضعة لأمراء مسيحيين محليين معاهدين - فى الاغلب الاعم - للاتراك . ولهذا رأى السلاطين منذ عهد مراد الاول ان الدولة بحاجة الى رجال عارفين بالاسلام وشريعته لكى يعملوا على تنظيم الدولة على اساس إسلامى وذلك يستدعى زيادة أعداد الأتراك من ناحية ، واجتذاب من يعلمونهم الاسلام من ناحية أخرى ، وتوحيد الدولة فى أسيا الصغرى حيث كانت تعج بامارات الترك المستقلة التى تكونت فى أراضى الدولة البيزنطية ممن أتو إليها فى أعقاب العثمانيين عن طريق المعاهدات والمصاهرات والعشراء من ناحية ثالثة - انظر د. حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الاسلام ، القاهرة ، الزهراء للاعلام العربى ، سنة ١٩٨٧ ص ٣٥٧ .

(٩٨) المرجع السابق ، ص ٣٥٧ - ٣٥٩ .

(٩٩) كان شارلكان (شارل الخامس) امبراطور دولة الهابسبورج التى شملت فى ذلك الوقت النمسا والمجر (بحكم ما نشأ بين الدولتين من أواصر المصاهرة والنسب وأغراض السياسة) وعدداً من الولايات الالمانية وعرش اسبانيا وهولندا وجنوبى إيطاليا وجنوا وفلورنسا ووهران وصقلية والبندقية . انظر فى هذا الشأن Henri Lapeyre , Charles Quint , Que Sais - Je ? , 1971 , pp. 15-21. 46

(١٠٠) وهنا يمكن القول بأنه على الرغم من قوة العثمانيين البرية فى أوربا .

فانهم لم يبلغوا قط مبلغ السيادة البحرية أمام البندقية وفرسان القديس يوحنا فى مالطة واجزاء امبراطورية شرلكان فى جنوبى ايطاليا والبحر المتوسط ، على الرغم من مغامرات بربروسة وغيره

انظر فى هذا الشأن

Brian Blouet , The Story Of Malta , London, 1972 , pp 54 - 56 , 65.

(١٠١) نشر هذا الكتاب بعد وفاة پيرين سنة ١٩٣٥ ، وهو فى مضمونه دراسة للتاريخ الاقتصادى فى العلاقات بين الاسلام والمسيحية فى حوض البحر المتوسط ، وما استخلصه فى شأنها من نتائج جانبه فيها الصواب ، وعارضه فى شأنها كل من لويس لومبار (الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية، فى د٠ توفيق اسكندر، بحوث فى التاريخ الاقتصادى، دار النشر للجامعات ، ١٩٦١ ،ص ٥١) وروبرت س ٠ لوپز (محمد وشرلمان : اعادة نظر، نفس المرجع للدكتور توفيق اسكندر ص ١٠١) الذى يؤكد أن رؤية هنرى بيرين لم تهتم بالعلاقات الثقافية قدر اهتمامه بالاحوال الاقتصادية والاجتماعية فضلاً عن ان مصادره ومعلوماته كما قدمها تبعث على الدهشة ٠

فالواقع فى رأى هنرى پيرين أن ظهور الاسلام فى حوض البحر المتوسط لا يعدو الا ان يكون كارثة ألمت بالعالم المسيحى : أغلقت حوض البحر المتوسط وحطمت الاتصال الحضارى فيه وجعلت منه حداً يفصل بين عالم الاسلام والمسيحية ، بعد ان نسفت سلامة المواصلات البحرية فيه وحالت دون ان يقوم بدوره فى عقد الصلات التجارية والحضارية التى كانت تعقد لواءها طالما كان هذا البحر بحيرة رومانية او بيزنطية ، او بالأحرى بحيرة مسيحية محصنه ٠ وهكذا أحدث الاسلام- فى رأى هنرى پيرين - انقساما نهائياً وحدوداً فاصلة فى حياة هذا البحر الحضارية حتى انتهاء الحروب الصليبية التى قامت على تجديد هذه الصلات ودعمت بانتهائها وحدته الاقتصادية من جديد ويستشهد پيرين فى ذلك بقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته : «واساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الاسد على فريسته ٠ وقد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً، واختلفت فى طرقه سلماً وحرباً فلم

تسبح للنصرانية فيه ألواح »وهكذا - عند هنرى پيرين - ما ان شعر الفرنجة بتصدع وحدة البحر المتوسط الاقتصادية وانقطاعهم عن الاتصال المنتظم مع بيزنطة وممتلكاتها بحراً - فى الشام ومصر وشمال أفريقية وإيبريا وجزر البحر المتوسط ، وان بلادهم قد اصبحت تطل على بحر نضب معين حياته التجارية ، ولم تعد ثغوره المخربة لإقفار صلاتها التجارية تمد مدنهم الداخلية بخير يذكر ، حتى انطووا على أنفسهم ، واستبدلوا باقتصاد الدولة السابقة - الميروڤنجين - القائم على الاتصال بالبحر ، والانتظام فى حركة حياتهم الاقتصادية عبر غالة والبروفانس الرومانى ، اقتصاد الكارولنجيين الاقطاعى القائم على اساس الانتاج الزراعى . فقد اضمحلت طبقة التجار الوسطى ، واصبح دورها محدودا بالسير فى الطرق البرية ما اتسع لها امام هجمات الأڤار وغيرهم ، او بنهر الراين والموزل وبحر الشمال ، الامر الذى استتبع جهوداً مماثلة من جانب شرلمان فى مقارعة السكسون الوثنيين والصقالبة وغيرهم من شعوب الشمال الزاحفة على دولته واضطره الى تقوية حقوق فرنسا ، واتخاذه أخن (إكس لاشابل) عاصمة رئيسية لدولته ، وشاهداً على رغبته فى انتقال السلطة السياسية من حوض البحر المتوسط الى وسط اوربا ومن حضن الشعوب اللاتينية الى حضن موطنه الاصلى بين شعوب الوالون (لبيج) وربقة العسكرية التيوتونية التى اصبحت الخدمة فيها وحماية سكانها فى الاقاليم ضريبة وثمناً لامتلاك الارض والاقطاع القائم على هبات الامبراطور - انظر دراستنا فى هذا الخصوص بجريدتى الشرق الاوسط وعمان ، يونيو ١٩٨٤ - يونيو ١٩٨٥ .

(١٠٢) دائرة المعارف الاسلامية ، المرجع السابق الجزء الثانى، ص ١٨٨ . ١٨٩

(١٠٣) المرجع السابق ، ص ١٨٩ ، ١٩٣ .

(١٠٤) ففى عهد خلفه سليم الثانى استولى العثمانيون على جزيرة قبرص سنة ١٥٧١م، وأصبحت ولاية تركية حتى احتلها الانجليز سنة ١٨٧٨م وتذكر بالحمد اعمال مراد الرابع الملقب بأخر الغزاة (١٦٢٣ - ١٦٤٠م) فقد وطد نفوذ الدولة فى ترانسلفانيا وامارتى الدانوب ، وحصن تخوم الدولة فى القرم وانتزع ازوف من قوازق المسكوف سنة ١٦٦٠م.

(١٠٥) فى أوائل سنة ١٥٢٥ ، وبينما سليمان فى بلغراد تلقى رسالة ورسولاً من فرنسوا الأول بنجدته ضد شارلكان ، فأجاب السلطان بحزم «ان جوادنا مسرج وسيفنا معلق به» - قصة الحضارة ، المرجع السابق ، الجزء ٢٦ ،ص ١٠٣

(١٠٦) المرجع السابق ، ص ١٠٢

(١٠٧) المرجع السابق ،ص ١٠٣ - ١٠٤

(١٠٨) ومع ذلك لم يلبث لوثر ان دعا مؤخراً الى ذبح ابناء المسلمين ودعوة اتباعه الى المشاركة فى قتال جيوشهم التى غطت السهول والتلال فى سانت ستيفن - قرب فينا - لأنه كان من الواضح انه بسقوط فينا سنة ١٥٣٢ ستكون المانيا واللوثرية هى الهدف التالى لهجوم العثمانيين، وأخذ يذيع الأنباء فى كل أنحاء أوربا أن سليمان قد اقسم أن يخضع كل أوروبا للعقيدة الوحيدة الصحيحة ، وهى الاسلام

(١٠٩) Henry Kamen , L'Eveil De La Tolerence, Hachette, 1967, PP. 137,138, Theodore Ruyssen, Les Sources Doctorinales de L, Internationlisme, P.U.D.F.,1954, Tome I, PP. 379 - 398.

وقد قيل عن سليمان القانونى (جامع القوانين) فى مجال التسامح الدينى انه كان أجرأ واكرم من انداده المسيحيين . فقد رخص للمسيحين واليهود ، والذين وجدوا فى امبراطوريته مأوى آمناً من محاكم التفتيش فى اسبانيا والبرتغال ممارسة شعائرهم فى حرية تامة . ففى حين كانت انجلترا وألمانيا اللوثرية تعتبر الكثلكة جريمة ، كما كانت إيطاليا وفرنسا وأسبانيا يعتبرون البروتستانتية جريمة ، امر سليمان فى نوفمبر سنة ١٥٦١ بالافراج عن سجين مسيحى رفض التحول عن دينه . وقال الكاردينال بول فى ذلك «ان الاتراك لا يلزمون الاخرين باعتناق عقيدتهم . ولهذا الذى لا يهاجم دينهم ان يفصح عن اية عقيدة يعتقدها وهو آمن» وكيف لا وقد كان سليمان معاصر مايكل انجلو و اعماله التاريخية شاعرا ومثقفا وعاشقا للفنون والاداب ، محبا لمصاحبة الفنانين من أمثال خبتيل بلليني رسام البندقية ، وشاه ڤارلى ووالى جان من رسامى المنمنمات فى فارس . وبلغ الفن التركى فى عهده ذروته فى فن العمارة ، فجعل القسطنطينية مدينة المساجد الشامخة التى

عمرت بفن سنان باشا فى العمارة . وقيل فى ذلك ان مساجد القسطنطينية قد اقتسمت مع الله غنائم العثمانيين فى انتصاراتهم ، وانها اثار ورموز تعبر فى ان واحد عن الزهد ، كما تعبر عن الزهو بان سلاطين آل عثمان يصممون على إتخام شعبهم بحب الفن قدر اتخامهم بكثرة الغزو والسلاح . كما قيل ان سليمان قد نافس جده محمد الفاتح فى تشييد سبعة مساجد تتفق مع جلاله وعظمته ، وفاق أحدها الذى بناه له سنان باشا سنة ١٥٥٦ وحمل إسمه كنيسة أيا صوفيا جلالاً ورونقاً . فكان حاله كحال جده محمد الفاتح الذى احب الفنون بأنواعها وقامت بينه وبين امراء إيطاليا وفنانيها صلات المودة التى بوأته بين امراء النهضة التى انبعثت فى عصره مقاما محمودا

- دائرة المعارف الاسلامية ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، ص ١٧٨ ، قصة الحضارة ، المرجع السابق ، الجزء ٢٦، ص ١٢٥

(١١٠) پول هازار ، أزمة الضمير الأوروبى ، الترجمة العربية ، الكاتب المصرى ، ١٩٤٨ ، ص ٩ . ١٤ . ٢٤

(١١١) من المأثور أن فرديناند أرسل سفيرا الى القسطنطينية يطلب الصلح من سليمان فقال له انه يقبل الصلح لا لمدة سبع سنوات ولا لخمس وعشرين سنة ، ولا لمائة سنة ، ولا لقرنين من الزمان او ثلاثة قرون ، ولكن فى الحق الى الابد ما لم ينقضه فرديناند نفسه ، وانه سوف يعامل فرديناند كابن له ، على انه ينبغى على فرديناند ان يرسل له مفاتيح مدينة جراتز رمزا للخضوع ، وان يدفع الجزية . ومن ثم اصبح فرديناند يطلق على نفسه «ابن سليمان»

انظر قصة الحضارة ، المرجع السابق ، الجزء ٢٦ ، ص ١٠٦ - ١٠٧

(١١٢) انظر دائرة المعارف الاسلامية ، الجزد الثانى (الترجمة العربية) ، المرجع السابق ، ص ١٨٩

ومما يروى فى هذا الصدد عن نفاق الامبراطورية النمساوية ان فرديناند بعد ان تصالح مع سليمان ، واسمى نفسه «ابن سليمان» ارسل رسولا الى شاه فارس يحرضه على مهاجمة سليمان فى المشرق . قصة الحضارة ، المرجع السابق ، ص ١٠٧

(١١٣) فى سنة ١٣٠٠م لم يكن لروسيا وجود ، سوى فى ثلاث مدن فى الشمال تحكم نفسها بنفسها ولا يربط بينها الا خضوعها للقبيلة الذهبية بعد ان تم لاحفاد جنكيزخان فتح غرب اسيا وجنوب الروسيا وشيدوا عاصمتهم فى سراى على نهر الفولجا ، ونظموا حياة روسيا وحكومة موسكو وفقا لاساليب التتار . وقد عاق هذا أن تصبح روسيا لمدة طويلة - لمدة قرنيين على الاقل - دولة أوروبية وحين سقطت القسطنطينية فى يد العثمانيين ، تزعمت موسكو المذهب الارثوذكسى واصبحت تطلق على نفسها روما الثالثة لان روما والقسطنطينية قد سقطتا ، وهى التى رفضت اندماج الكنيسة اليونانية مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . ومن المعلوم ان إيڤان الاول كان جامعاً للجزية الروسية لحساب خان التتار ، ولكنه ما لبث ان أثرى وازدهر وادعى السلطان على كل الولايات . وكان إيڤان الرهيب الذى تابع توحيد روسيا من احفاده (١٥٠٥ - ١٥٣٣)، وأخذ يوطد للدولة ويتبادل الرسائل مع البابا ليو العاشر ومكسمليان وشارل الخامس (شارلكان) وسليمان القانونى . وكانت سياسته الخارجية ترمى الى توسع روسيا بين بحر البلطيق وبحر قزوين حتى يحقق امن روسيا ووحدتها ، ولهذا اخذ يحيك المؤامرات ويمزق المعاهدات ، وحمل الكنيسة على ان تعمده قيصراً ، واختار من بين العذارى النبيلات أنستازيا رومانوف زوجة له . وعلى هديه فى السلم والحرب وحب النساء جاء بطرس الاكبر الذى اخذ دوراً طويلاً فى مقارعة العثمانيين فى البحر الاسود - قصة الحضارة المرجع السابق ص ١٥ .

(١١٤) الباب العالى لفظ اطلقه الفرنسيون على مجموعة مبانى الحكومة المركزية والتى تضم السلطان وحريمه ومعاونيه . وكان نطاق هذه المبانى يبلغ ثلاثة اميال ، وله باب واحد مزخرف .

(١١٥) ول ديورانت ، قصة الحضاره ، الجزء ٢٦ ، ص ١٠٨ - ١٢٩

(١١٦) ينقل ول ديورانت عن الكاردينال پول قوله «ان الاتراك لا يلزمون احداً باعتناق عقيدتهم . ولهذا الذى لا يهاجم دينهم ان يفصح عن اى عقيدة يعتنقها وهو امن » ثم يقول : «فى نوفمبر سنة ١٥٦١ حين كانت اسكتلندة وانجلترا وألمانيا

اللوثرية تعتبر الكثلكة جريمة ، وكانت إيطاليا وأسبانيا تعتبران البروتستانتية جريمة ، امر سليمان بالافراج عن سجين مسيحى «غير راغب فى تحويل اى فرد عن دينه بالقوة» لقد جعل سليمان من امبراطوريته مأوى أمناً لليهود الفارين من محاكم التفتيش فى أسبانيا والبرتغال - المرجع السابق ، ص ١٢٥

(١١٧) المرجع السابق ، ص ١٢٥

(١١٨) عندئذ عقدت معاهدة ريسويك Ryswick سنة ١٦٩٧ ما بين فرنسا وبين بريطانيا وهولندا واسبانيا والنمسا ، ورفض الباب العالى الانضمام اليها رغم الحاح لويس الرابع عشر حيث حددت هذه المعاهدة حدود فرنسا فى الالزاس والاراضى الواطئة وقد اسس الباب العالى رفضه على اكتشافه تعصب دول اوربا كلها ضده .

- انظر هذا الشأن Sir Walcer Philimore , Three Centuries Of Treaties Of Peace , London , 1917, PP. 7, 21, 179.

(١١٩) كانت كاترين الأولى (١٧٢٥ - ١٧٤٠) زوجة بطرس الأكبر، ابنة الفلاح الليتوانى قد حاربت العثمانيين واستطاعت احتلال بحر أزوف، حتى مكنت الاسطول الروسى من ولوج البحر الأسود حتى استطاع الاسطول العثمانى بقيادة سليمان باشا أن يردهم على اعقابهم. وطلب الأوروبيون الصلح الذى انتهى بمعاهدة بلغراد سنة ١٧٣٩م.

أما كاترين الثانية التى جرت على عادة أصحاب العروش فى أوروبا (لويس ١٤، لويس ١٥، وأمير الدانمرك الذى سأل بطرس الأكبر ذات يوم عن عدد محظياته) حتى عرفت بذات الغلمة Richard Leurnshon , History of Sexual Customs, New York, 1956, PP. 210 - 214) فقد استطاعت بجيوشها أن تحتل مولدافيا وبلاد الأفلاق (١٧٦٨ - ١٧٧٤) وأن تحتل ضفاف نهر الدنيستر فى البغدان سنة ١٧٩٢، كما قامت على تقسيم بولندا (١٧٧٢، ١٧٩٣، ١٧٩٥) وتقويض مملكتها، وجعلت من روسيا جارة مباشرة للنمسا وبروسيا، وأن تفتح الطريق لها فى أوروبا، بمعنى أن تصبح دولة أوروبية يعتمد عليها فى الحرب ضد الدولة

العثمانية، بمباركة من أوروبا بأسرها.

(١٢٠) رمت وصية بطرس الأكبر إلى رفع شأن آل رومانوف بتوسيع حدود روسيا فى شتى الآفاق، من بحر البلطيق حيث تقترب من مركز الحضارة الأوربية (المتمثل فى المانيا التى كان شديد الإعجاب بها) إلى ايران والهند (التى بها خزائن الدنيا) عبر القرم وبلاد القوقاز التى أخضعها طويلا بزرع بذور الفتنة بين رؤساء قبائلها وإثارة الفتن والخلافات العقائدية والدينية ومن ثم يمكن تطويق آسيا الصغرى وآسيا الوسطى والقضاء على الإسلام، فضلا عن السيطرة على طريق التجارة القديم بين الهند والشام وأوروبا.

(١٢١) وفى معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ نصت المادة ٢٨ منها على بقاء اقليم الصرب متعلقا بالباب العالى، ولكن يحق له أن يحافظ على استقلاله بقيام حكومة أهلية مع حرية التدين والشرائع والتجارة والإبحار وهكذا عاد لروسيا دور جديد فى تحريض الأرثوذكس فى صربيا والجبل الأسود على الاستقلال. فقد شكلت هذه المادة بادرة جديدة لمطالبة صربيا والجبل الأسود بالاستقلال التام. كما ساعدت على مطالبة البوسنة - الهرسك بالامتيازات المماثلة لامتيازات الصرب.

(١٢٢) أسست روسيا سنة ١٨٧٥ مراكز فى فينا لدعم صقالبة الصرب والجبل الأسود، كما جعلت البندقية من نفسها مركزا لدعم الكروات الكاثوليك .

(١٢٣) انظر فى هذا الشأن ;Sir Walter Phillimore, op. cit, pp. 73-109
Rene Pinon, op . cit., 31-34; 133-140,429-440.

(١٢٤) الكاتب التركى جلال نورى بك، اتحاد المسلمين ، ترجمة حمزة طاهر وعبد الوهاب عزام، القاهرة، ١٩٣٠ ، ص ١٣٠ ومابعدها.

(١٢٥) أرنولد توينبى، المرجع السابق، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(١٢٦) دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، المرجع السابق ، الجزء السابع ، ص ٤٣٥ - ٤٤٠.

(١٢٧) المرجع السابق ص ٤٣٥ .

(١٢٨) المرجع السابق ، ص ٤٣٦ ، ففى حين كانت ولايتا البوسنة وبودا (قلب ذلك الجزء من بودابست الحالية الذى يقوم على الضفة اليمنى لنهر الدانوب)،

وكذلك كوسوفو والسنجق وألبانيا معاقل للدولة العثمانية فى أوروبا فى وجه تدخلات النمسا ومؤامرات الكنيسة الارثوذكسية والبابا حتى آخر حكم سليمان ، أبقى العثمانيون على عدد من الامارات شبه المستقلة فى ترانسلفانيا والافلاق (رومانيا) والبغدان وإمارة القرم التترية على البحر الاسود. هذا بينما كانوا لا يرون خطرا كبيرا من قوزاق بولنده وبلاد المسكوف (روسيا) ، وإنما يرونها حاجزا بينهم وبين امبراطورية النمسا . ولهذا كانت الدولة العثمانية تطالب خلال تلك الفترة بحق سيادة هذه البلاد ، كما رفضت تقسيم بولندة خلال محاولات روسيا المستمرة تقسيمها والقضاء على مملكة وارسو (دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، ص ١٨٨).

(١٢٩) المرجع السابق ، ص ٤٣٨

(١٣٠) المرجع السابق ، ص ٤٣٨ ، ٤٣٩.

(١٣١) وبمرور الزمن استطاعت الدولة العثمانية أن تستوعب أجزاءاً من هذه الامارة وتدخلها دار الاسلام ، وأصبح أهلها مسلمين وهم أجداد أولئك الذين يشنون الحرب على الروس فى الوقت الحاضر حول نهر الدنيستر فى مولدافيا الحالية بعد انفصالها عن الاتحاد السوفيتى .

(١٣٢) كانت النمسا قد سبقت ذلك إلى الاستيلاء على الجزء الشمالى الغربى من البغدان (بكوفينا) سنة ١٧٧٥ ، كما ضمت روسيا إليها بسارابيا سنة١٨١٢ .

(١٣٣) دائرة المعارف الاسلامية ، المرجع السابق ، الجزء الثانى، ص ١٩٨ ؛ الجزء السابع ص ٤٤٠.

ومن الأهمية بمكان أن تنظر فى حدود البغدان أو مولدافيا الحالية مع بروسيا فى عهد العثمانيين ثم بعد الاتحاد مع الأفلاق فى رومانيا وتتمثل هذه الحدود فى نهر الدينستر وباسارابيا (مولدافيا الشرقية) :

Yaeques Ancel , Les Frontiéres, Etude De Geographie Politique, Recueil Des Cours , Tome 53 (1936-1), A.D.D.I , PP. 207, 208, 212.

(١٣٤) تحذير المسلمين عن الوقوع فى حبالة دسائس الائتلافيين ، وبيان وجوب

مجانبتهم ومجاهدتهم ، بنص الكتاب المبين ، تأليف العلاقة المحقق .. عبد الرحمن ابن أحمد الياس المدنى ، طبع بالمطبعة العامرة بدار الخلافة العلية ، علاوة للجريدة الفريدة العلمية ، فى غرة رجب سنة ألف وثلثمائة وأربع وثلاثين من الهجرة النبوية (١٣٣٤هـ) ص ١٢ - ١٦. وقد أهدانا إياها صديقنا المرحوم زكى أفندى مجاهد، الوراق بخان جعفر، وكان عالماً محققاً".